خصائص الإله

الأنباء الثلاثة الكبرى

في الدين

١ ـ ٢ خصائص الإله

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (   ) لسنة ٢٠١٨م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، لا سيّما (محمّد) خاتم النبيّين، وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

وبعد .. فهذا هو القسم الثاني من بحث (الإله) نتحدث فيه ـ بعد بيان أصل (وجود الإله) في القسم الأول ـ عن (خصائص الإله).

وذلك أنّ من المهمّ للإنسان الباحث عن الحقيقة في هذه الحياة بعد الوثوق بوجود الله سبحانه وتعالى كخالق للكون ومبدع له أن يتعرّف على خصائصه وصفاته على ما تقتضيه أدلّة وجوده وشواهده، فذلك جزء ضروريّ من المعرفة الكونيّة كما هو الحال في معرفة أصل وجود الإله الخالق.

على أنّ الباعث للإنسان على معرفة الإله فضلاً عن بعده المعرفيّ في حدّ ذاته هو معرفة التعامل الصحيح واللائق مع هذا الإله، فإنّ التعامل مع أيّ كائن يتوقّف على الاطّلاع على صفاته وخصائصه؛ لدخالة ذلك في رسم التعامل اللائق معه.

ومن ثَمّ جاء في الأديان اعتبار ذلك من جملة المعرفة اللازمة للإنسان، فالدين يرشد الإنسان إلى أمرين ..

١ ـ التعليم الكونيّ، والمراد به معرفة الحقائق الكبرى في الحياة.

٢ ـ التربية الروحيّة، والمراد بها تزكية النفس وتحليتها بالخصال الفاضلة والقيم النبيلة.

ومعرفة صفات الإله كمعرفة أصل وجود الإله من جملة التعليم اللازم، وهي دخيلة في العمليّة التربويّة أيضاً.

ذكر الخصائص التي نبحث عنها

ولأجل ذلك وصفنا في هذا البحث عدّة خصائص للذات الإلهيّة، وهي على الإجمال كما يأتي ..

١ ـ وحدة الإله.

٢ ـ سنخ وجود الإله ومغايرته مع سائر الكائنات.

٣ ـ طبيعة صفات الإله بالمقارنة مع صفات الكائنات الأخرى.

٤ ـ قدرة الإله وعموم هذه القدرة.

٥ ـ علم الإله وأبعاد هذا العلم.

٦ ـ اختياريّة أفعال الإله.

٧ ـ في أن فعل الله سبحانه حادث.

٨ ـ دوام فعله في إيجاد الكائنات.

٩ ـ حكمة الإله بتناسق أفعاله وانتظامها.

١٠ ـ جريان فعل الإله على نظام الأسباب والمسبّبات.

١١ ـ اتّصاف الإله في صنائعه بالذوق الجميل.

ذكر الخصائص التي نبحث عنها ٩

١٢ ـ محبّة الإله للتواصل مع خلقه العقلاء.

١٣ ـ محبّته تعالى للخلق وللخصال الفاضلة فيهم وأهلها.

١٤ ـ عدل الإله أو قل: الضمير الأخلاقيّ له تعالى مع خلقه، وهو يشتمل على حقوقه سبحانه على الخلق، وقيمَه في التعامل معهم.

وقبل الخوض في هذه الأبحاث ينبغي ذكر مقدّمتين ..

الأولى: في خصائص الإله والعلم الحديث.

الثانية: في ذكر تأصيلات عامّة في طريق معرفة خصائص الإله.

المقدمة الأولى: في خصائص الإله والعلم الحديث

- انقسام خصائص الإله إلى ما يثبته العلم وما يضيفه الدين
- هل ينفي العلم بعض خصائص الإله في الدين؟
- ادّعاء أداء العلم الحديث إلى تعطيل فعل الإله في الكون ونقده
- العلاقة العامّة للأشياء بالخالق بحسب الدين
- العلاقة الخاصّة للخالق بالإنسان بحسب الدين
- ادّعاء نسبة الأشياء والحوادث إلى الخالق بنحوٍ مباشر في الدين ونقده
- معيار الإسناد العامّ للأشياء إلى الله سبحانه
- معيار الإسناد الخاصّ ـ غير الخارق ـ للأشياء إلى الله في الدين
- معيار الإسناد الخاصّ الخارق إلى الخالق بحسب النصوص الدينيّة
- المراد بما جاء في النصوص من إسناد جميع الأشياء إلى الله تعالى

خصائص الإله والعلم الحديث

(المقدّمة الأولى): في خصائص الإله والعلم الحديث.

قد عرفنا في بحث وجود الإله أنّ أصل وجوده معطى علميّ كما هو نبأ دينيّ، وأنّ العلم والدين يتّفقان على هذه الحقيقة تماماً، وليس لإنكار الإله والتشكيك فيه مأخذ علميّ.

ولكن ماذا عن خصائص هذا الإله؟

يتّفق العلم مع الدين في إثبات جملة من الخصائص لهذا الإله مثل التوحيد، والعلم، والقدرة، وجمال الصنعة المعبّر عنه أحياناً بـ(الذوق الجميل).

وينفرد الدين بإثبات خصائص إضافيّة للإله من قبيل حبّ الخير وكراهة الشرّ، وحبّ التواصل مع الإنسان وغير ذلك.

انقسام خصائص الإله إلى ما يثبته العلم وما يضيفه الدين

وفي ضوء ذلك يمكن القول: إنّ الخصائص التي تثبت للذات الإلهيّة على قسمين ..

(الأوّل): ما يثبت للإله في تقدير العلم، حيث إنّ العلوم الحديثة من قبيل علمي الكونيّات والفيزياء تُثبت إلهاً للكون يُعتبر هو المقنّن لقوانين الكون والحياة والمهندس لوجود الكائنات وفقها. وقد يعبَّر عن هذا الإله بـ(إله العلم)[1].

ومن هذا القسم وحدانيّة الإله، فلا تعرف العلوم الطبيعيّة الحديثة للكون والكائنات إلّا إلهاً واحداً. ومن هذا القسم أيضاً سنخ وجود الله تعالى وقدرته وعلمه.

ومما يوضحه العلم في شأن الإله نفي ألوهيّة الكائنات السماوية التي ولع بها

---

(١) وإن كان هذا التعبير غير دقيق، لكن المراد به المقدار الذي تثبته العلوم الطبيعيّة.

الإنسان من جهة عدم علمه بطبيعتها فاعتقد بألوهيّتها وفاعليّتها، حيث أتاح العلم الحديث والإمكانات الصناعية المعاصرة الاطّلاع على طبيعة هذه الكائنات، وتبيّن من خلال ذلك أنها كائنات ماديّة على حدٍّ الكائنات الأرضية، وليس فيها مزيّة توجب الاعتقاد بألوهيّتها.

كما أن العلم أزال كثيراً من الخرافات الأخرى المتعلقة بالكائنات السماوية، من قبيل الاعتقاد بتأثيرها في الكائنات الأرضية على وجوه مختلفة لا صحة لشيء منها. ولكن تلقي الإنسان للسماء على أنها تعلو الأرض أعطاه انطباعاً عن هيمنتها على الأرض وما عليها.

وكذلك الحال في شأن جملة من الكائنات الأرضية الطبيعية، حيث نجد أن بعض الملل والنحل يُؤلّهها بالرغم من أنها على حدٍّ غيرها، ولا امتياز لها على ما سواها[١].

(الثاني): ما يثبت للإله في الدين، ومن هذا القسم محبّته تعالى التواصل مع خلقه العقلاء، ومحبّته تعالى للخلق والخصال الفاضلة فيهم وأهلها. وكذلك اتّصافه بالعدل والضمير الأخلاقيّ.

هذا وإنّ التأمّل في المشهد الكونيّ وفق رؤية الدين يعطي اكتمالاً رائعاً في هذا المشهد بين كلّ مكوّناته، فللّه سبحانه من خلال خصاله علاقة وثيقة بالإنسان، والمفروض بالإنسان أيضاً أن يكون كذلك، فهو يكتمل بالانتباه إلى وجود الله سبحانه، والاطّلاع على صفاته، والاتّصال به تعالى.

هذا ولا شكّ في أنّ العلم لا ينفي من خلال النظر في الطبيعة ما يتضمّنه الدين من خصائص إضافيّة للإله.

---

(١) ومن الناس من يعبد أشياء لا على أنها خالق للكون والكائنات، بل على سبيل تقديسها وتعظيمها لعظيم نفعها للإنسان، ولعل من هذا الباب عبادة البقر من قِبل بعض الهنود. والظاهر أن إطلاق الألوهيّة في مثل ذلك ليس بالمعنى المنظور، بل بمعنى كل ما يستوجب التقديس، فلاحظ .

هل ينفي العلم بعض خصائص الإله في الدين؟

لكن قد يُطرح في بعض الأوساط العلميّة ـ المتعلّقة بعلوم الطبيعة ـ أنّ العلم ينفي بعض الخصائص المهمّة التي يثبتها الدين للإله ممّا يرتكز عليه الدين، وذلك أمران ..

ادّعاء أداء العلم الحديث إلى تعطيل فعل الإله في الكون ونقده

(الأمر الأوّل): إنّ الدين يتضمّن أنّ الله سبحانه فاعل في الكون والكائنات بشكلٍ دائم، ولكن العلم الحديث بتفسيره للأشياء والحوادث بالتفسير الطبيعيّ يؤدّي إلى تعطيل فعل الإله وتصرّفه في الكون الطبيعيّ، ولذلك قيل: إنّ الكون منذ الانفجار الكبير فما بعد مستغنٍ عن أيّ تدخّل إلهيّ في شؤون الطبيعة.

والجواب عن هذا: إنّ للكائنات بحسب الدين علاقتين بالخالق: علاقة عامّة، وعلاقة خاصّة للإنسان مع الخالق ..

العلاقة العامّة للأشياء بالخالق بحسب الدين

١ ـ **أمّا العلاقة العامّة** للأشياء بالخالق فمن جهة استمدادها منه وسلطته عليها ..

أ ـ أمّا استمداد الأشياء منه تعالى فبيانه أنّه ـ كما سبق ذكره ـ في طبيعة علاقة الأشياء بالخالق وجهان ..

(الأوّل): أن تكون الأشياء مستغنية في بقائها عن وجود الخالق وإمداده.

(الثاني): أن يكون كلُّ الكون والكائنات بطبيعة وجودها متقوّمة بمبدعها وموجدها بما يشبه اتّصال الطاقة بمنبعها، كما يحتمل أن تكون هناك هداية إلهيّة مستمرّة للكائنات إلى غاياتها، فهي أيضاً تسير إلى نهاياتها بتوجيه من خالقها لها، نظير حركة المقذوفات الصاروخيّة بأشعّة الليزر إلى غاياتها.

وعلى هذا الوجه فإنّ الأشياء كلّها تحتاج إلى مدد مستمرّ من الخالق، فلو انقطع المدد عنها لم تستمر حتى آناً ما.

والعلم الحديث لا يعين الاحتمال الأوّل ولا ينفي الاحتمال الثاني؛ لأنّه لا يعلم كنه الأشياء التي يرصدها وإنّما يرصد ظاهرها وخواصّاً فيها، ولا يعلم عن طبيعة استمدادها في وجودها ومسارها من خالقها.

وذكر بعض علماء الفلسفة الإسلاميّة أنّ الوجه الثاني هو المتعيّن بحسب القواعد الفلسفية؛ لأنّ وجود الأشياء بعد أن كان إفاضةً من الخالق بموجب الأدلّة فإنّه يقتضي افتقار هذا الوجود ـ بطبيعته ـ إلى ممِدٍّ له، ولا يرى العقل فرقاً بين حدوث الشيء وبقائه.

وأيّاً كان فإنّ مقتضى النصوص الدينية تعيين الاحتمال الثاني، وهو أنّ الأشياء تستمدّ وجودها من إرادة الخالق بشكلٍ دائم.

وهذا يوافق ما قد يتوّقعه الإنسان ابتداءً؛ إذ من البعيد أن يكون الخالق للكون والكائنات قد خلقها في ابتدائها ثمّ تركها إلى شأنها وقد استغنت عنه في وجودها وديمومتها لملايين السنين.

ب ـ وأمّا سلطة الله سبحانه على الأشياء فالمراد بها قدرته على التصرّف فيها وتوجيهها إلى حيث يشاء، وعليه فإنّ العوامل الطبيعيّة ليست سبباً تامّاً لما ينتج عنها بحيث يستحيل تخلّف نتيجتها عن وجودها، بل يستطيع الله سبحانه إذا أراد أن يحول بين الشيء وأثره الطبيعيّ.

وهذا أيضاً أمر تثبته النصوص الدينيّة بما جاء فيها من كون كلّ شيء مرهوناً بإذن الله سبحانه.

كما أنّ على هذا الأمر يتخرّج ما يؤمن به الناس من خوارق الأنبياء، فإنّه يبتني على أنّ لله سبحانه سلطة على الأشياء يوجّهها كما يشاء.

وكذلك الحال فيما يرجوه عموم الناس من البركات وما يدعون بها لأنفسهم وشعوبهم من الخيرات؛ فإنّه يرجع إلى الأمل في توجيه الله سبحانه دفّة الأمور إلى مناحي

الخير والسعادة، وهذا يقتضي أنّ لله منافذ في التأثير في الأشياء ليست محسوسة للإنسان.

هذا عن العلاقة العامّة لله سبحانه بالأشياء.

وليس ذلك ممّا ينفيه العقل، فإنّ ما يدركه العقل إنّما هو اطّراد تأثير الأسباب الطبيعيّة في نتائجها بشكل عامّ، ولا يحكم باستحالة انفكاك تلك الأسباب عن النتائج بشكل مطلق.

وقد ادّعى جمع من علماء الفيزياء دون الذرّيّة أنّ عالم ما دون الذرّة ليس محكوماً بالعوامل الحاسمة، بل تبقى الاحتمالات واردةً فيما يؤول إليه وضع الأجزاء ما دون الذرّيّة ونشاطاتها.

وهذا الادّعاء وإن لم يكن صحيحاً كما سبق منّا، إلّا أنّ ذلك ينبّه على أنّه لا مجال لاستبعاد وجود منفذ لتأثير الإله في العالم المادّيّ.

العلاقة الخاصّة للخالق بالإنسان بحسب الدين

٢ ـ وأمّا العلاقة الخاصّة للخالق بالإنسان فهو من حيث استجابته لمشاعره وعواطفه، ولسؤاله وتصرّفه من مداخل يعلمها في الإنسان وما حوله. وقد سبق منّا توضيح ذلك.

وبذلك يظهر أنّ تصرّف الله سبحانه في الكون والكائنات لا ينحصر بإيجاد الوضع الكونيّ والكائنات الحيّة فحسب، حتّى يُدّعى أنّه إذا كان قد أوجدها من خلال نظام قدَّره فيها وفق نظريّة الانفجار الكبير والتطوّر الأحيائيّ لم تبق لها حاجة إليه ولا كان له تصرّفٌ فيها، بل بقاء الكون والكائنات واتّجاهها هو فعل اختياريّ لله سبحانه وتعالى، والسنن الطبيعيّة هي أدواته التي يستعملها.

ادّعاء نسبة الأشياء والحوادث إلى الخالق بنحوٍ مباشر في الدين ونقده

(الأمر الثاني): ما قيل من أنّ الانطباع الدينيّ عن الكون، والتنوّع الكونيّ المشهود،

والحوادث الكونيّة ـ من قبيل حركة الشمس والقمر والأرض والكسوف والخسوف والزلزلة ـ كل ذلك بتدخّل إلهيّ مباشر وخارق، حتّى كشف العلم الحديث تدريجاً عن تفسيرات طبيعيّة لنشأة الأشياء والحوادث، وكلّما كشف العلم عن التفسير الطبيعيّ في شيء تراجع الانطباع الإيمانيّ وتمسّك بتدخّل الله سبحانه فيما غَمُض وجهه ولم يُكتشف سببه بعد، حتّى أدّى ذلك إلى وهن نظريّة (الإله) لدى أهل العلم، وقيل: إنّ الانطباع الإيمانيّ يبحث عن الله سبحانه في الفجوات والفراغات، حتّى إذا سدّ العلم فراغاً من خلال التفسير الطبيعيّ لشيءٍ أو حادثٍ اقتنع أهل الإيمان بما سواه.

على أنّ هذا الانطباع عن الدين ليس دقيقاً. والانطباع الصحيح عن موقف الدين في علاقة الأشياء والحوادث بالله سبحانه وتعالى يتضح من خلال بيان أنّ للأشياء والحوادث ثلاثة أنواع من الإسناد إلى الله سبحانه وتعالى ..

معيار الإسناد العامّ للأشياء إلى الله سبحانه

(**النوع الأوّل**): الإسناد العامّ للأشياء إلى الله تعالى، وهو من وجهين ..

(**الوجه الأوّل**): من حيث انتهاء كلّ الأشياء إلى الله سبحانه؛ لأنّ إليه تنتهي سلسلة الأسباب والمسبّبات وقد أوجدها عالماً بكوامنها ونهاياتها مقنّناً لقوانينها ومسارها.

(**الوجه الثاني**): من حيث تقوّم كلّ الأشياء في وجودها وبقائها وفاعليّتها بالمدد الإلهيّ على ما أوضحناه قريباً.

هذا، وهذا النوع من الإسناد لا يقابل السبب الطبيعيّ لوجود الأشياء بل يجتمع معه، كما هو ظاهر.

معيار الإسناد الخاصّ ـ غير الخارق ـ للأشياء إلى الله في الدين

(النوع الثاني): إسناد خاصّ في مورد العناية الإلهيّة الخاصّة (الذكيّة) في توجيه دفّة الأشياء إلى المناحي المحدّدة من غير نقض للسنن الطبيعيّة أو تعطيلها، فإنّ الأشياء من حيث إنّها مستمَدّة من الله سبحانه وموجَّهة بتوجيهه إلى غاياتها فإنّ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوجّهها توجيهاً لطيفاً إلى حيث يشاء. وهذا الأمر يشبه بعض الشيء ما نجده من توجيه ربّ الأسرة منحى السلوكيّات فيها بنحو غير محسوس إلى الاتّجاه الذي يرغب فيه، وتوجيه القوى الاجتماعيّة والسياسيّة دفّة الحوادث العامّة إلى مسارٍ معيَّن.

وقد يُعَدّ من أمثلة ذلك وحيه سبحانه لأمّ موسى بن عمران عليه السلام بإلقاء وليدها في اليمّ لإنقاذه من القتل على أيدي فرعون كما قال تعالى[1]: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ**﴾.

والواقع أنّ مرجع التدخّل الإلهيّ في المورد إلى فعل خارق ما ولكنّه يكون على نحو ظريف من خلال تحفيز الأسباب الطبيعيّة من قبله تعالى، مثلاً قد يكون الإنسان قابلاً لأن يخطر في ذهنه الشيء الخاصّ ـ الذي يكون حلّاً لمشكلته ـ ولكنّه يحتاج إلى تحفيز إضافيّ، فيتحقّق ذلك بعنايةٍ من الله تعالى. وقد يكون هناك داعٍ في الإنسان إلى شيء ولكنّه غير مؤكّد فيتقوّى بإلهامٍ منه سبحانه.. إلى غير ذلك.

وهذا النوع من الإسناد وإن كان خاصّاً إلّا أنّه لا يعطّل الأسباب الطبيعيّة بل يسخّرها ويوجّهها إلى منحىً معيَّن.

ويتحقّق ذلك بحسب ما يُستفاد من النصوص الدينيّة في الاستجابة لرجاء الإنسان ودعائه، فالإنسان إذ جُبل في خلقته على الشعور بالحاجة إلى الله والأمل فيه فإنّه يجد ـ وفق

---

(١) سورة القصص: ٧.

المنظور الدينيّ والإيمانيّ ـ استجابةً من الله سبحانه لهذا الأمل والسؤال، فالحال بين الإنسان وبين الله سبحانه ـ بحسب هذا المنظور ـ كالحال بين الطفل والأمّ، فما زُرع في الطفل من الشعور بالحاجة إلى الأمّ يقابله شعور في الأمّ يوجب الاستجابة لهذا الطفل، وكثيرٌ ممّا يرجوه المؤمنون لأنفسهم من الخير والبركات إنّما يتوقّعون حصوله من هذا الباب، وليس على أساس الخوارق المعلنة.

معيار الإسناد الخاصّ الخارق إلى الخالق بحسب النصوص الدينيّة

(**النوع الثالث**): استناد الفعل الخارق إلى الله سبحانه من غير وجود عاملٍ طبيعيٍّ في المورد أصلاً.

وهذا النوع وفق ما قد يُستفاد من النصوص الدينيّة ليس حالةً عامّةً في الكون المادّيّ، بل الحالة العامّة في هذا الكون أنّ الله سبحانه خلق الأشياء المادّيّة على نظام الأسباب والمسبّبات، فهناك لكلّ شيء وحادث سبب طبيعيّ يوجبه.

ولكن هناك خمسة موارد خارجة عن هذه القاعدة ..

(**المورد الأوّل**): **بدايات الخلق**، والتي لم يكن هناك محيص عن الفعل الخارق، ونعني بذلك: أصل وجود الكون المادّيّ؛ فإنّه لا محلّ لحدوثه عن شيءٍ سابقٍ يتطوّر إليه، وإنّما هو وجود للشيء ابتداءً.

(**المورد الثاني**): **أصل تكوّن الحياة في الكون**، فإنّ الحياة هي هدف من أهداف خلقها وغاية من غاياتها، وهي جزء أساس من مقتضيات المشهد الكونيّ القائم، فهو حالة خاصّة لا استبعاد في التدخّل الإلهيّ الخارق لأجلها ولو بتكييف المادّة تكييفاً ينتج آثار الحياة، لا سيّما بعد تعذّر وجود تفسير طبيعيّ لحدوثه بحسب المعطيات العلميّة إلى الوقت الحاضر، على ما سيأتي توضيح ذلك.

(**المورد الثالث**): **تنوّعات الحياة أو بعضها**، ونعني بتنوّعات الحياة أنواع الكائنات

الحيّة، بناءً على استبعاد وجود سبب طبيعيّ لها ـ كما عليه جمع من علماء الطبيعة ـ على خلاف رأي التطوّر الأحيائيّ المشهور الذي ذهب إليه داروين.

وقد تُخَصّ الحيوانات بإيجادها من خلال التدخّل الخارق[١] بناءً على تعذُّر حصولها بالتطوُّر الطبيعيّ المحض، من جهة وجود بعد روحانيّ غير مادّيّ لها، بدليل عنصر الإدراك فيها ولو ببعض مراتبه؛ لأنّ الإدراك ليس عمليّةً مادّيّةً يمكن تفسيرها بنشاطات فيزيائيّة وكيميائيّة بحتة.

وعليه فلو فُرض أنّ الجانب الجسميّ من الحيوانات قد حدث بالتطوّر الطبيعيّ فإنّه لا غنى عن نفحة روحيّة ملائمة للقابليّات الجسميّة المتطوّرة من فاعل غير ماديٍّ.

وقد يُخَصُّ الإنسان بين الحيوانات بالتدخّل الخاصّ، من جهة تأكّد الدليل فيه على وجود بعد روحانيّ له، من جهة تميّزه بالإدراك المتطوّر ـ من قبيل التحليل والتخيّل والمقارنة والتفكير وغير ذلك ـ وكذا تميّزه بالضمير الأخلاقيّ وقدرته على التحكّم في سلوكه المعبَّر عنه بـ(الاختيار)، وهي ظواهر غير مادّيّة.

(المورد الرابع): نهاية النشأة الدنيا وحدوث النشأة الأخرى، فقد يُستفاد من النصوص الشرعيّة[٢] حدوث انهيار للوضع الكونيّ القائم بعناية خاصّة وقيام وضع جديد

(١) ويجوز أن يكون هذا التدخّل مبنيّاً على سنن معنويّة روحانيّة فاعلة على أساس مطّرد كاطّراد السنن المادّيّة في الجانب المادّيّ من الوجود.

(٢) كقوله تعالى: ﴿**كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا**﴾ الفجر: ٢١، وقوله سبحانه: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا**﴾ الزلزلة: ١ـ٢، وقوله عزّ من قائل: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ**﴾ التكوير: ١ـ ٣، وقوله جلّت آياته: ﴿**إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ**﴾ الانفطار: ١ـ ٤، وقوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ**

بالإرادة الإلهيّة، وقد يُحتمل أن يكون نظم النشأة الأخرى مبنيّاً على أساسٍ خارقٍ على أحد الاحتمالين، بمعنى أن تجري الأمور فيها كلّها بالإرادة الخارقة. والاحتمال الآخر أن يغيّر الله سبحانه قوانين الكون على وجهٍ آخر ينتج نظاماً آخر.

(المورد الخامس): خوارق الأنبياء، وهي أفعال فوق الطاقة البشريّة اقترنت برسالة الأنبياء دليلاً على صدقها عند تحدّي المكذّبين بها إيّاهم، وقد أدّت إلى تغييرات اجتماعيّة وتاريخيّة كبيرة، مثل: معاجز موسى عليه السلام التي أدّت إلى نجاة قوم بني إسرائيل من فرعون، ومعاجز عيسى عليه السلام التي أدّت إلى إيمان فريقٍ من بني إسرائيل به بعد تكذيب الأحبار إيّاه، ومعاجز النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله التي أدّت إلى تغيير وجه الجزيرة العربيّة التي كانت عقيدة الشرك متجذّرة فيها.

وتلحق بها كرامات الصالحين من الأنبياء وغيرهم، والكرامات أمور خارقة لكن لا تصدر في مقام تحدّي المدّعي للرسالة ومطالبته من قِبَل المنكرين والشاكّين، بل تصدر في مقام إكرام الخلق عنايةً من الله سبحانه بهم؛ تقديراً ليقينهم بالله وثقتهم به وتوكّلهم عليه، حيث يشاء سبحانه، نظير الطعام الذي كان يأتي مريم الصدّيقة أم المسيح عليهما السلام، قال تعالى[1]: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾.

ومن هذا القبيل بعض ما يتحقّق أحياناً في أثر استجابة الدعاء الفرديّ أو

﴿**وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا**﴾ طه: ١٠٥ـ١٠٨، وقوله سبحانه: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ الأنبياء: ١٠٤، وقوله عزّ وجلّ: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ العنكبوت: ٢٠.

(١) سورة آل عمران: ٣٧.

الاجتماعيّ، مثل نزول المطر الغزير في أثر صلاة الاستسقاء.

ومن هذا القبيل أيضاً نزول العذاب على المَتحدّين لله سبحانه، مثل هلاك قوم أبرهة لّما قصد هدم الكعبة.

وهذه كلّها تُعتبر حالات استثنائيّة في الكون وليست حالات منتظَمة انتظاماً مفهوماً للإنسان.

نعم، لا شكّ أنّها لا تخلو عن انتظامٍ في المقياس الإلهيّ؛ إذ لا يجوز صدور عمل اعتباطيّ وغير متناسق من الحكيم، بأن يتحقّق في موردٍ ولا يتحقّق في موردٍ مماثلٍ له تماماً، بل تكون موارد صدور التصرّف وعدم صدوره كلّه منسّقاً ضمن سنن معنويّة وروحيّة يكون سبحانه هو العالم بها.

وبذلك يظهر أنّ وجود الكائنات والظواهر المتعلّقة بها كلّها في غير هذه الموارد الخمسة على سبيل التطوّر الطبيعيّ وليس بتدخّل إلهيّ خارق.

على أنّ النصوص الدينيّة تدلّ على أنّه في غير المورد الأوّل ـ وهو وجود أصل الكون ـ لا يكون حدوث الأشياء عن عدم محض، بل على سبيل التطوير لشيءٍ سابقٍ كما جاء أنّ الإنسان خُلق من الطين.

والمتحصَّل ممّا ذكرنا: أنّ الحالة العامّة في الكون هي حدوث الأشياء والحوادث الكونيّة وفق سنن طبيعيّة، بما فيها الزلزلة والخسوف والكسوف وغير ذلك، ولا يصحّ إسناد شيء من الله سبحانه على وجهٍ ينفي تأثير العامل الطبيعيّ.

المراد بما جاء في النصوص من إسناد جميع الأشياء إلى الله تعالى

وما وقع في النصوص من إسناد الحوادث إلى الله سبحانه بنحوٍ عامّ إنّما هو ناظر إلى الإسناد العامّ، وليس ناظراً إلى نفي الأسباب الطبيعيّة؛ ومن ثَمّ يُنسب الحدث الواحد تارةً إلى الله سبحانه وأخرى إلى الإنسان أو السبب الطبيعيّ. وهذا أمرٌ واضحٌ لمن لاحظ

النصوص الدينيّة على وجهٍ جامع.

كما أنّ ما ورد في الدين من الأمر بالدعاء والصلاة عند الحوادث الطبيعيّة المهمّة كالكسوف ليس ناظراً إلى إسناد مباشر لها إلى الخالق، بل كان النظر إلى أنّها تصلح منبّهات تثير في الإنسان الشعور بضعفه وبعظمة الله سبحانه وتعالى، فيكون من اللائق تذكّر الإنسان لله ولنعمه وإبراز الأدب الخاص تجاهه.

والواقع أنّ وجوب الصلاة في الإسلام في المواقيت الخمسة (الفجر، الزوال، العصر، الغروب، العشاء) إنّما هو من جهة أنّها تمثّل تغييرات عظيمة فيما حول الإنسان فينبغي استذكار الله سبحانه عندها.

وعلى هذا الأساس فإنّ من شأن الإنسان أن يبحث عن سببٍ طبيعيٍّ عامٍّ لكلّ حادثٍ اعتياديٍّ في الكون والكائنات، وليس من الصحيح أن يفترض تدخّلاً إلهيّاً خاصاً نافياً للسبب الطبيعيّ.

ولكنّ بعض أهل الدين قد ينسبق إلى أذهانهم أنّ ذلك فعلٌ خارقٌ لله سبحانه وفق معلوماتهم عن العوامل الطبيعيّة، وقد يُسقطون ذلك على النصوص الدينيّة من غير أن تكون في تلك النصوص دلالة على ذلك، بل ربّما وردت تخطئة مثل ذلك ـ أحياناً ـ في النصوص الدينيّة، كما عن أبي الحسن موسى عليه السلام أنه قال[1]: ((لما قبض إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جرت فيه ثلاث سنن: أما واحدة، فإنه لما مات انكسفت الشمس، فقال الناس: انكسفت الشمس لفقد ابن رسول الله، فصعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره مطيعان [له] لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإن انكسفتا أو واحدة منهما فصلوا ثم نزل

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٢٠٨، ولاحظ مسند أحمد بن حنبل ج:٦ ص:٧٦.

عن المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف..)).

على أنّ أهل الدين وإن ظنّوا أنّ بعض الأمور من فعل الله سبحانه مباشرةً فإنهم لا يستوحشون أو يضطرب إيمانهم إذا نُبّهوا على أنّ له سبباً طبيعيّاً؛ فإنّهم يرون كلّ الكائنات والحوادث مستندةً إلى الله سبحانه إما بالإسناد العام المتقدّم أو بتسخير الأسباب الطبيعيّة أو بالفعل الخارق.

فظهر بذلك كلّه: أنّ ما يُطرح من نفي العلوم الحديثة لتدخّل الخالق في الكون على نحو ما ورد في الدين والنصوص الدينيّة ليس صحيحاً.

وبهذا يتم الكلام في المقدمة الأولى في خصائص الإله والعلم الحديث.

المقدمة الثانية: تأصيلات عامّة حول معرفة الإله

- ◆ ١ ـ مصادر معرفة الله سبحانه
- ◆ ٢ ـ عدم صحّة التعمّق في شأنه تعالى
- ◆ أقسام القضايا الفلسفيّة
- ◆ ٣ ـ تأكد الحذر في مقام الحديث عن الله سبحانه

تأصيلات عامّة حول معرفة الإله

(المقدّمة الثانية): في ذكر تأصيلات عامّة في طريق معرفة الإله، وهي ثلاثة ..

١ ـ مصادر معرفة الإله.

٢ ـ عدم صحّة بعض التعمّق في شأنه تعالى.

٣ ـ تأكد الحذر في مقام الحديث عن الله سبحانه.

مصادر معرفة الله سبحانه

(التأصيل الأوّل): في مصادر معرفة الله سبحانه.

إنّ مصادر معرفة الله سبحانه ثلاثة ..

(الأوّل): ما يتمثّل في صنعه من الكون والكائنات؛ فإنّ أفعال الكائن ترجمان لذاته وشخصيّته، ففي إيجاده تعالى للأشياء ما يدلّ على طبيعة صفاته، وإن لم يكن ذلك معبّراً عن جميع أبعاد شخصيّته[1] ووجوده بطبيعة الحال.

(الثاني): ما غُرس في فطرة الإنسان بخصوص شأنه تعالى، وذلك أنّه كما غُرس في الفطرة الشعور بوجود الله سبحانه كذلك قد غُرس فيها أنّه تعالى كائن متميّز في أوصافه وقدراته.

وقد يكون بعض ما نذكره على أنّه اقتضاء فطريّ مجرّد إرهاص فطريّ يصلح استئناساً لا دليلاً مستقلّاً.

(الثالث): ما ورد في الرسائل الإلهيّة إلى الخلق من التعريف بالله سبحانه، فإنّ

---

(١) التعبير بـ(الشخصيّة) أو نحوها ممّا لم يرد في النصوص في حقّه تعالى توسّع أدبيّ لغرض التوضيح والبيان.

إحدى مهامّ هذه الرسائل هو تعريف الإنسان بالله سبحانه وبشخصيّته وصفاته حتّى يكون على بيّنة في التعامل اللائق معه.

وهذا المصدر مهمّ جدّاً؛ لأنّ الإنسان وإن جُهّز في فطرته بما يهديه بعض الشيء إلى صفاته تعالى كما يتمثّل في الكون أيضاً تلك الصفات بمقدارٍ ما، لكن مع ذلك فإنّ العالم الربوبيّ يبدو عالماً غامضاً قد يذهب التفكير بالإنسان إلى الأوهام والتخيّلات ويقع في المتاهات، كما وقع في ذلك قوم من الفلاسفة والمتصوّفة ومدّعي العرفان. ومن ثَمّ فإنّ من شأن الرسائل الإلهيّة تقويم انطباع الإنسان عن الله سبحانه وتثبيته على أساس صحيح. وهذه نكتة جوهريّة وقاعدة أساسيّة من قواعد المنطق الفكريّ في شأن الله سبحانه وتعالى خاصّةً وأبحاث ما وراء الطبيعة عامّة.

هذا وبالرغم من أنّنا في هذه الأبحاث لم ندخل بَعدُ في إثبات حقّانيّة الرسالات، ولكنّنا نذكر ما جاء فيها استئناساً وإيضاحاً لتناسبها مع شواهد الخلق والفطرة.

لكن ينبغي الانتباه في مقام الاستعانة بما جاء في الرسائل الإلهيّة إلى الاستعمالات الأدبيّة التي ترد فيها، فاللغة هي ظاهرة إنسانيّة، والإنسان كائن مجهّز بقوّة التخيّل والافتراض، وهو يستخدم هذه القوّة لغايات متعدّدة منها الإيفاء بالمعنى والتأثير في المشاعر، فاقتضى ذلك توسّع النصوص الإلهيّة في مقام مخاطبة الإنسان بما يناسب مداركه وذوقه حتّى تكون نصّاً بليغاً وافياً بأداء الرسالة إليه.

ولذلك أمثلة كثيرة نذكر اثنين منها ..

(١). ما ورد من تعابير في شأن الله سبحانه على أساس مجاز المشاكلة، و**مجاز المشاكلة** هو التوسّع في التعبير في مورد مجاراة مع التعبير الواقع في الكلام، وقد ذكره علماء البديع في ضمن المحسّنات اللفظيّة البديعيّة، مثل قول القائل:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه   قلت اطبخوا لي جبّةً وقميصاً

فالمراد بطبخ الجبّة والقميص خياطتهما، لكن حيث كان المطلوب منه أن يقترح شيئاً يُطبَخ له عبّر عن الخياطة بالطبخ إيهاماً بأنّه اقترح ما يندرج ضمن ما طُلب منه.

ومن ذلك قوله تعالى(١): ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾، فسمّى جزاء الاعتداء اعتداءً على سبيل المشاكلة وإشعاراً بالتماثل التامّ مع الاعتداء الأوّل.

وممّا يندرج تحت هذا الباب التعبير بالخديعة والمكر في شأنه تعالى، كما قال سبحانه(٢): ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾، وقال تعالى(٣): ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾، فهذا التعبير إنّما جرى على المشاكلة لما يعطيه من الإيحاء بالمقابلة بالمثل والغلبة على الفاعل في عمليّة المكر والخداع.

(**٢**). ما ورد من تعابير في شأنه تعالى مضاهاةً مع ما يتحقّق في مثله لدى الإنسان، كما في استخدام التعبير بالأعضاء في شأنه تعالى، مثل قوله سبحانه(٤): ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾، وهو تعبير عن المقدرة والغنى بلازمه ـ وهو بسط اليد ـ في الإنسان. وقوله تعالى(٥): ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾، فالمراد تأكيد كون البيعة معه تعالى بإثبات مظهره المادّيّ في الإنسان من التصافق. وقوله عزّ من قائل(٦): ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾، فالمراد ببقاء وجه الله

(١) سورة البقرة: ١٩٤.

(٢) سورة النساء: ١٤٢.

(٣) سورة آل عمران: ٥٤.

(٤) سورة المائدة: ٦٤.

(٥) سورة الفتح: ١٠.

(٦) سورة الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.

سبحانه بقاء الله؛ لأنّ الناس إذا كانوا وقوفاً في مشهد صراع فيما بينهم فإنّ من غاب وجهه دلّ ذلك على سقوطه وزواله، ومن ثبت بوجهه فهو الباقي، فاستعمل بقاء الوجه للدلالة على بقاء الذات بهذا الاعتبار.

ومن هذا القبيل التعبير في شأنه تعالى بالغضب، فالغضب في الإنسان انفعال يسبق التصرّف المؤذي للغير، والمراد به التعبير عمّا يُتوقّع منه تعالى من المجازاة والعقاب على حدّ ما يُتوقّع من الإنسان عند الغضب.

وهذه معانٍ واضحة وبديهيّة للفهم العامّ.

عدم صحّة التعمّق في شأنه تعالى

(التأصيل الثاني): في عدم صحّة التعمّق في شأن الله تعالى فيما لا يملك الإنسان أدوات التعمّق فيه.

إنّ من الضروريّ انتباه الإنسان إلى مقدار أدواته المعرفيّة في الموضوع الذي يعالجه، ومن ثَمّ يكون من الخطأ توغّل الإنسان في التفكير فيما لا يملك فيه أدواتٍ معرفيّة، فيُبتلى جرّاء ذلك بالأخطاء والأوهام، كما تجد ـ مثلاً ـ أنّ من الناس مَن يتأمّل أحوال المجتمع وتوجّهاته من غير أدواتٍ معرفيّةٍ مناسبة، مثل الإحصاءات والاختلاط الاجتماعيّ وغيرها، فيذهب بعيداً فيما يصل إليه من أفكار وانطباعات، وهذا أمر يقع فيه الساسة كثيراً.

وقد يستطيع المرء أن ينفي وجود شيءٍ ما من خلال بيانٍ حاصرٍ للاحتمالات الواردة وإيراد مناقشةٍ عقليّةٍ على كلّ واحد، لكنّ هذا المقدار لا يعني أنّ بيانه هذا يمثّل برهاناً؛ لأنّه لا يؤدّي إلى الوثوق ببُنية الدليل وسوق الملازمات فيه.

ومن ثَمّ تجد أنّ باستطاعة بعض الدارسين للعلوم العقليّة كالفلسفة أن يرتّبوا بياناتٍ لتفنيد بعض الأمور البديهيّة لا يستطيع عامّة الناس من حلّ وجه الخطأ فيها، لكنّ

ذلك لا يوجب ثقة الناس بها.

وقد لوحظ أنّ بعض علماء الكلام والفلسفة من قبل استخدموا الأدوات الفكريّة في المسائل الطبيعيّة فانتهوا إلى أوهامٍ غريبة.

ومن أمثلة ذلك ..

١ ـ إثبات بعض المدارس الفلسفيّة كائنات روحانيّة تُسمّى بـ(العقول العشرة) وسيطةً بين الخالق والكائنات المادّيّة.

٢ ـ إثبات كثيرٍ منهم أرواح فلكيّة للسماوات، تكون هي المحرّكة للنجوم.

٣ ـ إثبات استحالة الخلأ ببراهين متعدّدة من قِبَل العديد منهم[١].

ومن طريف ما يُحكى أنّ بعض كبار فلاسفة طهران في القرن الثالث عشر كان قد بلغه أمر التصوير الفوتوغرافيّ الحديث، فأنكر إمكان ذلك على أساس استحالة بقاء الظلّ عقلاً مع زوال ذي الظلّ.

وقد كانت المبالغة في استخدام المنهج العقليّ في المسائل الطبيعيّة السبب الأهمّ في زوال الثقة ـ منذ النهضة العلميّة الحديثة في أوربّا ـ بالمناهج العقليّة الفلسفيّة.

أقسام القضايا الفلسفيّة

والواقع أنّ القضايا الفلسفيّة على ثلاثة أقسام ..

١ ـ قضايا بديهيّة وواضحة، **مثل**: (كلّ حادث يحتاج إلى علّة) و:(النقيضان لا يجتمعان).

٢ ـ قضايا متوسّطة ذات مدارك قريبة إلى البديهيّات، يجدها الإنسان بشيءٍ من التأمّل الراشد.

---

(١) كما يجد الباحث ذلك في كلمات الفخر الرازيّ في (المباحث المشرقيّة) وتبعه صاحب الأسفار فيها.

٣ ـ قضايا تخيّليّة هي أقرب إلى النسج منه إلى الاكتشاف والاستدلال، فهي لا توجب ثقةً للإنسان وإن صُوّرت بصور البرهان، بل يكون حقيقة ما يُذكر فيها بعنوان البرهان مجرّد لغزٍ أو عقدةٍ فكريّةٍ محبوكةٍ تتطلّب حلّاً. وهذا القسم لا قيمة له نفياً أو إثباتاً، فيكون الاحتجاج به ضرباً من المجادلة ليس إلّا.

هذا، ومن أجل ذلك ورد الذمّ في التعمّق في شأن الله سبحانه في كلمات الإمام علي عليه السلام حيث قال[١]: ((الْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى التَّعَمُّقِ، وَالتَّنَازُعِ، وَالزَّيْغِ، وَالشِّقَاقِ. فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ..))، والمقصود من التعمّق السعي إلى بلوغ عمق الشيء، وهو مذموم في شأن الذات الإلهيّة؛ لقصور أدوات إدراك الإنسان عن تناولها.

وفي خطبة له عليه السلام تُعرَف بـ(خطبة الأشباح) ـ وهي من جلائل خطبه ـ وكان قد سأله سائل أن يصف الله حتّى كأنّه يراه عياناً، فغضب عليه السلام لذلك، وقال بعد حمد الله والثناء عليه[٢]: ((فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ: فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ، وَلاَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللهِ عَلَيْكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، الإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللهُ تَعَالَى اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً، فاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ، وَلاَ تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ)).

(١) نهج البلاغة ص:٤٧٣ـ ٤٧٤.

(٢) نهج البلاغة ص:١٢٥، الخطبة: ٩١.

تأكد الحذر في مقام الحديث عن الله سبحانه

(التأصيل الثالث): في أنّه ينبغي للإنسان رعاية الحذر في الحديث عن الله سبحانه وخصائصه وأفعاله، كما يظهر ذلك في ضوء ما تقدّم، نظراً إلى أنّ ذلك عالم غامض في حدوده وتفاصيله بالقياس إلى مدارك الإنسان، فلا يصحّ أن يُسترسل في الحديث عنه سبحانه من غير استيثاقٍ لائق، لا سيّما أنّه قد يكون في بعض الحديث عن الله سبحانه ما يكون سوء أدب من الإنسان ولو من حيث لا يحتسب.

ومن ثَمّ كرِه بعض أهل العلم أن يوصَف الله سبحانه بوصفٍ لم يرد في النصوص الدينيّة الموثوقة حذراً واحتياطاً، وعبّر بعضهم عن ذلك بأنّ أسماء الله سبحانه توقيفيّة، بمعنى أنّ توصيفه تعالى يتوقّف على السمع وليس مورد هذه المقولة طبعاً مثل صفة العلم والقدرة بل الأوصاف والمفاهيم التي يمكن استحداثها؛ لأنّ بعض المفاهيم ذو إيحاءات غير مناسبة مع الذات الإلهيّة؛ لأنّها صيغت في اللغة على مقاسات بشريّة.

وبهذا يتم الكلام في المقدمة الثانية في ذكر تأصيلات عامة في طريق معرفة خصائص الإله.

وبعد تمام بيان المقدمتين نعود إلى الخوض في خصائص الذات الإلهية، وهي كما يأتي..

البحث الأول: في وحدة الإله وتعدده

- ◆ كون توحيد الإله هو العقيدة الراشدة
- ◆ عدم وجود مؤشّر على إلهٍ ثانٍ
- ◆ عدم دلالة الشرّ على وجود إله للشرّ
- ◆ عدم وجود كائن يعلمه الإنسان يصلح لأن يكون إلهاً ثانياً
- ◆ دلالة أدلّة وجود الإله على وحدانيّته
  - ١ـ دلالة الدليل الفطريّ على وحدة الإله
  - ٢ـ دلالة حجّة الخلق على وحدة الإله
- ◆ نقد البقاء على العقائد المشركة على أساس الفصل بين العلم والإيمان
- ◆ التوزيع الصائب لثنائيّة العلم والإيمان
  - ٣ـ دلالة حجّة الرسالات على وحدة الإله
- ◆ عوامل الاعتقاد بتعدّد الآلهة في الأديان

وحدة الإله وتعدده

(البحث الأوّل): ـ من الأبحاث المتعلقة بخصائص الإله ـ هو البحث عن وحدة الإله وتعدّده.

تختلف عقائد الأقوام والملل والنِحَل في هذا الموضوع، فالذي تجري عليه الأديان الإبراهيميّة هو توحيد الإله، عدا ما طرأ في ضمن هذا الدين من قِبَل النصارى من الالتزام بألوهيّة المسيح عليه السلام، وهذا التزام حدث في وقت متأخّر عن زمان المسيح عليه السلام. وما عن طائفة من اليهود من القول بأنّ عزيراً ابن الله، وما عن طائفة شاذّة ممّن نشأ في الإسلام من البناء على ربوبية النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام.

هذا، ولكنّ الاعتقاد الواضح والمعلَن في الأديان الإبراهيميّة وفي الإسلام منها خاصّةً ـ على ما تمثّل بكلّ وضوحٍ في القرآن الكريم ـ هو توحيد الإله؛ ومن ثَمّ التجأ جُلّ مَن أثبت الألوهيّة لغير الله سبحانه إلى توجيه ذلك بضربٍ من التكلُّف والتأويل.

وجوه تعدّد الآلهة عند الأقوام

وفي مقابل ذلك: هناك عقائد تبتني على تعدّد الإله، وهذه العقائد على ضربين ..

(الأوّل): من يلتزم بالإله الأعظم ويلتزم معه بآلهة أخرى، كما كان حال المشركين في الجزيرة العربيّة، فإنهم كانوا يلتزمون بالإله الأعظم الخالق للسماوات والأرض ولكن مع ذلك كانوا يتّخذون آلهةً أخرى من أصنام يصنعونها، ولو لأجل أن يقرّبوهم إلى الإله الأعظم (الله)، كما تكرّرت حكاية ذلك عنهم في القرآن الكريم[1].

---

(١) قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾ (سورة الزمر: ٣)، وقال سبحانه: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى**

(الثاني): مَن يلتزم بتعدّد الإله مع كون جميعهم في مستوى واحد.

واختلف الذين يلتزمون بتعدّد الآلهة فيمن يؤلّهون ـ غير الله ـ فبعضهم يؤلّهون بعض البشر، وبعضهم يؤلّهون الملائكة، وبعضهم يؤلّهون الشيطان، وبعضهم يؤلّهون أموراً اخترعوها من الأوثان والأصنام.

وكذلك يختلفون في تخصيص الآلهة بأمرٍ معيَّن أوّلاً، فبعضهم يبني على عموم ألوهيّة الآلهة لجميع الأمور، بينما يبني آخرون على أنّ لكلّ إلهٍ مجاله الخاصّ، فهناك إله للسماء وآخر للأرض، أو يكون هناك إله للخصب وإله للماء.. وهكذا. وقد يكون بعض الآلهة مختصّاً بقوم دون آخرين.

فهذه وجوه وأشكال متعدّدة من تعدّد الآلهة في العقائد المختلفة.

كون توحيد الإله هو العقيدة الراشدة

والواقع أنّ دين الإسلام ـ وهو الوارث السليم للأديان الإبراهيميّة ـ ينفي بشكل واضح تعدّد الآلهة بجميع الأنحاء.

وهذا المعنى يُعتبر من النقاط الساطعة والراشدة بوضوح في هذا الدين، فإنّ تعدّد الآلهة فكرة خرافيّة وموهومة ليس لها أيّ أساس موضوعيّ، وذلك بالتوجّه والالتفات إلى أمور ..

(١). إنّه ليس هناك أيّ مؤشّر على وجود إله آخر.

يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦١)، وقال عزّ من قائل: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ (سورة العنكبوت: ٦٣)، وقال جلّت آلاؤه: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ* لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة العنكبوت: ٦٥ـ٦٦)، ولاحظ أيضاً: سورة لقمان: ٢٥، وسورة الزمر: ٣٨، وسورة الزخرف:٩.

(٢). إنّه لا يوجد كائن آخر ممّا يطّلع عليه الإنسان يمكن أن يكون إلهاً.

(٣). إنّ الأدلّة القائمة على وجود الإله دالّة على وحدانيّته أيضاً.

(٤). إنّ البحوث التاريخيّة تهدي إلى أنّ الاعتقاد بتعدّد الآلهة قد ينشأ عن عوامل ثانويّة دخيلة في الأديان.

ولنوضح هذه الأمور الأربعة ..

عدم وجود مؤشّر على إلهٍ ثانٍ

أمّا **(الأمر الأوّل)** فبيانه: أنّ إثبات إله آخر يحتاج إلى دليل يُستدَّل به على وجود ذلك الإله، ولا يوجد لدينا مثل هذا الدليل لا من خلال شواهد الخلق ولا من خلال الرسالات المبعوثة إلى بني الإنسان، وقد ركّز القرآن الكريم في مقام إبطال الشرك مكرَّراً على هذه النقطة، وهي أنّهم التزموا بألوهيّة إلهٍ ثانٍ من غير أن يكون لهم أيّ برهانٍ وحجّة، فهو قولٌ بغير علمٍ يقيناً، قال تعالى[1]: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾، وقال عزّ من قائل[3]: ﴿**وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾.

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٤.

(٢) سورة الرعد: ١٦.

(٣) سورة المؤمنون: ١١٧.

ومن ألطف المقاطع القرآنيّة في ذلك قوله تعالى[١]: ﴿**قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَـهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

عدم دلالة الشرّ على وجود إله للشرّ

وبعض الأقوام الذين اعتقدوا بإلهين للخير وللشرّ احتجّوا على الثنائيّة بوجود الخير والشرّ، وقد اعتقدوا أنّ إله الخير في آخر الأمر يهزم إله الشرّ.

والواقع أنّ هذا الاحتجاج خاطئ؛ لأنّنا إذا تأمّلنا الشرور فهي على ضربين..

(**الأوّل**): ما يتحقّق في عالم الطبيعة والحيوانات.

و(**الثاني**): ما يتحقّق بين الناس من ظلم بعضهم لبعض.

أمّا (**الضرب الأوّل**) فمن الواضح أنّ سبب العوارض السلبيّة الطارئة إنّما هو نفس النظام الذي وُجدت الأشياء عليه، فهذا النظام هو الذي يسمح بطروّ هذه العوارض عليها.

مثلاً: تُصَنَّف الزلازل والفيضانات والسيول كشرور طارئة في الطبيعة، ولكن هذه

---

(١) سورة النمل: ٥٩ـ٦٤.

العوارض كلّها تترتّب على السنن والقواعد التي سُنّ عليها عالم الطبيعة وليست أثراً لكائن آخر، بأن يكون هناك إله للبناء وإله آخر للتخريب. وهذا أمر واضح بعد معرفة العلم أسباب هذه الحوادث في العصر الحديث.

فهذه العوارض هي الوجه الآخر لنفس النظم والقوانين التي بُنيت الكائنات عليها.

كما أنّ ما يتّفق في عالم الحيوانات من أكل بعضها لبعض ينشأ عن نظام خلق الحيوانات، حيث قُدّر أن يكون بعضها طعاماً لبعض، لكنّ النباتييّن يغالون في الشعور بالرقّة في امتناعهم عن أكل اللحوم والأطعمة الحيوانيّة، وهذا التزام بلا ملزم، فالسُنَّة التي خُلقت الحياة عليها اقتضت أن يكون بعض الحيوانات طعاماً لبعضٍ آخر، وبهذه الطريقة تحيى جميعاً ويُضمَن لها البقاء.

وأمّا (**الضرب الثاني**) وهو ما يتحقق من الشرور ويقع بين الناس، فإن هذه الشرور إنّما تقع بإرادة الإنسان. **نعم**، دلّت الأدلّة على أنّ هناك من يوحي إلى الإنسان بإيحاءات شرّيرة (الشيطان)، لكنّ الفاعل للشرّ هو الإنسان، وإنّما مثل الشيطان مثَل صديق السوء الذي يزيّن للإنسان طريقة السوء، فكما أنّ صديق السوء لا يهيمن على الإنسان بما يسلب إرادته واختياره وإنّما يؤثّر فيه من خلال أسلوبه ونظرته ومضمون كلامه فيسوقه إلى الشرّ، فإنّ الحال كذلك في الشيطان، فهو يتسلّل إلى النفس الإنسانيّة من خلال نوعٍ من الإيحاءات الخفيّة.

فليس في الشرور ما يدلّ على أنّ هناك خالقاً آخر تُسنَد إليه الحوادث السلبيّة.

هذا، وإذا صحّ ما ذُكر عن دين المجوس من الإيمان بإله للخير وآخر للشرّ فمن المحتمَل أنّه نشأ عن تحوير فكرة الشيطان في الأديان الإلهيّة. فجعلوا منه إلهاً من جهة ملاحظة دوره في الحوادث الشرّيرة. ويناسب ذلك اعتقادهم بغلبة إله الخير على إله الشرّ

في آخر الأمر وإهلاكه إيّاه، فإنّه ربّما كان تحريفاً عمّا ورد في الدين من انتهاء مهلة الشيطان وفاعليّته بحلول القيامة ومعاقبته من قِبَل الله سبحانه، فتكون هذه المعاني قد حُرِّفَت في دين المجوس إلى تعدّد الإله بالنحو المذكور.

وتدلّ الدراسات التاريخيّة حول الأديان أنّ كثيراً من العقائد الخاطئة فيها إنّما نشأت في داخل أديان قديمة تغيّرت مفاهيمها تدريجاً وتشوّهت وتمثّلت بهذا الشكل الخاطئ.

والحاصل: أنّه ليس في الشرور بحالٍ من الأحوال دلالة على وجود إلهٍ للشرّ. وهذا واضح للغاية بالالتفات إلى الاكتشاف الحديث للقوانين الكونيّة، حيث يوضح أنّها مجموعة واحدة منتظمة ومتناسقة تعكس وحدة الخالق ولا أثر من تعدّده فيها.

عدم وجود كائن يعلمه الإنسان يصلح لأن يكون إلهاً ثانياً

(الأمر الثاني): إنّ الإنسان الراشد يلاحظ من خلال النظر في طبيعة الأشياء التي التزم بعض الأقوام بألوهيّتها أنّ شيئاً منها لا يصلح أن يكون إلهاً بوضوح؛ لأنّه من سنخ الكائنات المخلوقة، فهو على مثالها، فكيف يكون هذا إلهاً من دونها.

مثلاً: التزم كثير من الأمم بألوهيّة أشياء يصنعونها، وهذا خطأ واضح بحكم العقل، فكيف تكون الأخشاب والأحجار ونحوها إلهاً متصرّفاً في الكون؟ كما قال سبحانه[1]: ﴿**أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾.

والتزم آخرون بألوهيّة بعض البشر كالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام، مع أنّ هؤلاء البشر محدَثون ومخلوقون، وحالهم في ذلك حال سائر البشر في حاجاتهم الطبيعيّة والمادّيّة، فهم كما قال تعالى[2]: ﴿**إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ**﴾، واللائق بالإله أن

(١) سورة الصافّات: ٩٥ـ٩٦.

(٢) سورة الفرقان: ٢٠.

يكون بطبيعته كائناً مختلفاً عن الأمور المخلوقة ولا يكون كأحدها، ولو كانت الأشياء المخلوقة صالحةً بطبيعتها أن تكون موجودةً بذاتها لم تكن حاجة إلى فرض خالق لها. ثمّ كيف يكون إنسانٌ معيَّنٌ إلهاً للخلق؟ فهل هو إله لمن عاش في الحقب السابقة واللاحقة جميعاً أم لخصوص الأجيال المعاصرة واللاحقة له؟ وكيف يصحّ ذلك؟ أم ماذا؟!

والتزم فريق ثالث بألوهيّة الملائكة، مع أنّ الإنسان لم يعرف وجود الملائكة إلّا من خلال الدين الحقّ بما تضمّنه من الأنباء، والدين قد ذكرهم على أنّهم خلق لله تعالى يعبدونه ولا يتجاوزون أوامره، لكن من اعتقد ألوهيّتها قدّر أنّها كائنات ذو حظوة عنده تعالى، فإذا عبدوها استجابت لحوائجهم.

وهكذا نلاحظ أنّ الأشياء التي بُني على ألوهيّتها في الفكر الإنسانيّ كلّها من الأشياء التي يكون الالتزام بألوهيّتها ضرباً من الجهل والخرافة الواضحة.

نعم، ربّما استُعين ببعض الفذلكات الفلسفيّة الضعيفة في توجيه ألوهيّة بعض الأشياء، مثل ما التجأ إليه علماء الكنيسة في توجيه ألوهيّة المسيح والروح القدس مع الله سبحانه، بأنّ الإله واحد في عين تعدّده كالشمس في جرمها ونورها وضيائها، وهي فذلكة غير مفهومة وفق مبادئ التفكير الراشد بوضوح.

وقد يُدّعى أنّ الإله حلّ في الكائن الخاصّ أو اتّحد معه، وهذه الدعوى ليس لها أيّ معنىً؛ لأنّ الإله ليس من سنخ أيّ كائن طبيعيّ ومخلوق كي يحّل فيه.

إذاً ليس بإمكان أيّ تفكير راشد إنسانيّ أن يجد مؤشّراً على وجود إله آخر ليكون حجّةً على تعدّد الآلهة، كما أنّه ليس هناك أيّ كائن يقف عليه الإنسان يصلح أن يكون إلهاً متصرّفاً في الكون وقيّماً عليه، وهذا واضح.

وقد جاء التذكير بهذا المعنى في آيات القرآن الكريم على نحو واضح وبيّن.

دلالة أدلّة وجود الإله على وحدانيّته

(الأمر الثالث): قضاء أدلّة وجود الإله بوحدة الإله، وهي أدلّة ثلاثة رئيسة ..

دلالة الدليل الفطريّ على وحدة الإله

(الدليل الأوّل): ـ على وحدة الإله ـ هو الدليل الفطريّ، وذلك أنّ الإنسان يشعر بوجود خالق وراء هذا الكون والكائنات ويشعر بالحاجة إليه، ويجد سكينةً في هذا الشعور وأملاً وتسليةً وأنساً وعزاءً. وهذا أمر لوحظ في تاريخ البشريّة في عمق التاريخ فلم تخلُ عامّة الأمم عن معبود فوق المادّة، نعم قد يضمّون إليه رمزاً مادّيّاً أو يضمّون إليه آلهةً أخرى.

وعليه فإنّ وجود هذا الشعور في داخل الإنسان بالتوجّه إلى كائن أعلى منبّه على وجود هذا الكائن فعلاً، بتوضيح ذكرناه في الحديث عن الدين والإلهام.

وهذا الدليل كما يلاحظه الإنسان بوضوح إنّما يوجّه الإنسان إلى كائن واحد، فالإنسان يشعر بالتعلّق بكائن أعلى وراء الطبيعة، ولا يوجد في شعور الإنسان أيّ مبدأ يعطي تعدّد الإله.

وقد يشير إلى هذا الدليل قوله تعالى[1]: ﴿**ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾.

فالآية الثالثة من هذه الآيات تشير إلى أنّ الإنسان فُطر على الإيمان بإله واحد دون

---

(١) سورة الروم: ٢٨ ـ ٣٠.

اتّخاذ آلهة متعدّدة.

وفي الآية الثانية إشارة إلى أنّ الإيمان بتعدّد الآلهة وإثبات شركاء لله تعالى ناشئ عن الأهواء والميول غير الراشدة.

وأمّا الآية الأولى فهي تقترح اختبار الفطرة من خلال مجسّ الهواجس الفطريّة؛ وذلك لأنّ الذي يسوق الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى كونه مصدراً للأنس والسكينة والتوجيه والهداية والعون، فليتأمّل الإنسان في نفسه أنّ ما يحقّق هذه المعاني في نفس الإنسان هل هو الشعور بإله واحد يعبده ويطلب رضاه ويعمل وفق المنهج الذي يوجّهه إليه، أم تتحقّق هذه المعاني مع وجود آلهة متعدّدة ذات أهواء مختلفة يتحيّر الإنسان فيمن يرضيه منها.

ومثل الآية الأولى آية أخرى، وهي قوله تعالى[١]: ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾.

وفي فرض تشاكس الآلهة المتعدّدين إشارة إلى نمط إيمان العرب المشركين، حيث إنّهم كانوا يجدون تشاكساً بين الآلهة التي يعبدونها ويتحيّرون في إرضاء هذا الصنم أو ذاك، بل كانوا يتحيّرون في إرضاء الله سبحانه مع تلك الآلهة، وربّما كانوا ينحازون إلى الآلهة، فيجعلون ما كان لله للشركاء التي يعتقدونها، كما قال سبحانه[٢]: ﴿**وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَـٰذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾.

وقد يقول قائل: إنّه إذا كانت الفطرة إنّما تهدي الإنسان إلى إلهٍ واحدٍ فلماذا نجد في

---

(١) سورة الزمر: ٢٩.

(٢) سورة الأنعام: ١٣٦.

التاريخ أنّ كثيراً من الأقوام كانوا مشركين، فهم يعبدون عدداً من الآلهة.

الجواب عن ذلك: إنّه لا يبعد نشأة تعدّد الآلهة في المجتمع البشريّ عن عوامل ثانويّة، **مثل**: الغلوّ في داخل الأديان، والمنافسة بين الأقوام، والخرافات التي تتولّد تدريجاً في داخل الدين، وربّما ساعد عليه بعض الهلاوس والمشاعر الزائفة، وليس لأجل وجود مأخذ في الفطرة الإنسانيّة يسوق إلى ذلك، كما سيأتي توضيحه.

دلالة حجّة الخلق على وحدة الإله

(الدليل الثاني): ـ على وحدة الإله ـ حجّة الخلق، وأبرز وجوه تقريرها هو تقرير النظم والتناسق والتصميم في الكائنات، وهذا التقرير أيضاً بمستوييه الإجماليّ العامّ والتفصيليّ العلميّ إنّما يدلّ على إلهٍ واحد ..

أمّا بالنسبة إلى **المستوى الإجماليّ** فلأنّنا نجد أنّ الكائنات كلّها متناسقة وجارية على نظام واحد، فلا نشهد في هذا الكون أيّ أثر من ثنائيّة الإله الخالق، بأن تكون الأشياء ـ مثلاً ـ على نمطين أو على نظامين مختلفين، بل النظام المشهود هو نظام واحد متَّسِق، والأشياء كلّها تجري في ضمن منظومة واحدة يكمّل بعضها بعضاً.

وإذا نظرنا إلى **المستوى التفصيليّ العلميّ** فالأمر أوضح، لأنّ بنية القوانين الكونيّة كلّها ـ سواء القوانين الفيزيائيّة والكيميائيّة والأحيائيّة والنفسيّة ـ إنّما هي بنية واحدة يكمّل بعضها بعضاً، وينسجم بعضها مع بعض، كما وصفه بإسهاب بعض علماء الطبيعة أنفسهم، فالنصوص السابقة[1] عن آينشتاين وغيره من علماء الطبيعة واضحة في أنّهم يجدون في قوانين الكون منظومة واحدةً لا أثر من التعدّد فيها.

---

(١) مرّ ذلك في الحديث عن حجّة وجود الإله.

وقد جاء في القرآن الكريم ما يشير إلى هذا المعنى على وجه، وذلك قوله سبحانه[١]: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾، وقد قيل في تفسير هذه الآية: إنّ الإله هو الكائن الموجّه للكون والكائنات والمتصرّف فيها، فإذا كان هناك آلهة متعدّدة للكون فإنّ كلّ واحدٍ منهم سوف يسعى إلى ترتيب الأمور في العالم وفق ما يشاء، وحينئذٍ لا يكون النظام الكونيّ بهذا الشكل من الوحدة والانتظام الذي نشهده في الكون[٢].

إذاً نلاحظ أنّ النظم الكونيّ وخصوصاً وفق المعطيات الحديثة يشهد على وحدة المؤثّر والصانع لهذا الكون، ولذلك فإنّ الشرك ليس مطروحاً في الزمان المعاصر؛ لأنّه

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٢.

(٢) والوجه الآخر في تفسير الآية ـ وهو غير بعيد ـ: أن تكون ناظرةً إلى انطباع المشركين في الجزيرة العربيّة عن الآلهة المتعدّدة، حيث كانوا يفرضون لكلّ قبيلة إلهاً خاصّاً، وكلّ إلهٍ يعين القوم الذين يعبدونه ويخضعون له ويسعى إلى إنزال البؤس بالآخرين، وهذا الأمر لو تمّ فإنّه يؤدّي إلى صراع الآلهة فيما بينهم.

وعليه فتكون الآية ناظرةً إلى هذه الأساطير الشائعة؛ لأنّ الآلهة متحيّزة بحسبها، فلكلّ قوم إله يسعى في جهة مصلحتهم وغلبتهم على أعدائهم.

وبذلك يظهر المراد بقوله سبحانه: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا**﴾ (سورة الإسراء:٤٢)، وقوله تعالى: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ (سورة المؤمنون:٩١)، أنّه لو كان في الوجود آلهة أخرى لسعى بعضهم أن يعلو على بعض ولحاول غير الله سبحانه أن ينتصر على ذي العرش وهو الله جلّ جلاله.

فهذه النصوص ناظرة إلى تعدّد الآلهة على النمط الذي كان سائداً في الجزيرة العربيّة من انتصار كلّ إله للقوم الذين يعبدونه، وحينئذٍ لا يمكن أن تكون هذه الآلهة في وئام مع تصارع الأقوام التي تعبدها، فيقع الصراع بين الآلهة ليغلب بعضها على بعض. وهذا أمر غير معقول.

افتراض خاطئ بوضوح.

وإذا كان الشرك موجوداً في هذا العصر عند النصارى أو الهندوس وغيرهم فإنّه ينشأ من عدم تحرّي الحقيقة، وقبول العقائد السابقة على سبيل التلقين.

نقد البقاء على العقائد المشركة على أساس الفصل بين العلم والإيمان

وممّا ساعد على القبول بمثل هذه التلقينات الخاطئة والحفاظ عليها ادّعاء أنّ لكلٍّ من العلم والإيمان مساحته التي يرجع إليه فيها، وأمر الألوهيّة والعبادة يتعلّق بالإيمان، فلا يُقاس بقياس الفكر الإنسانيّ.

ولكنّ هذا الموقف خطأ، كما نبّه عليه القرآن الكريم في إرشاداته المتكرّرة إلى المنهج العقيديّ الصحيح، فالعقيدة الصحيحة لابدّ أن تعتمد على الفطرة السليمة والدليل الراشد وشواهد الوجود، والإله المعبود حسب ما يُفترَض به ويليق بشأنه هو واهب العقل، وعقل الإنسان قبس من عقله ونفحة من نفحاته، فلا معنى لرفض التأمّل العقليّ في مضامين الدين، فالدين الحقّ لا محالة يكون أمراً راشداً عليه نور العقل وشواهد الحقيقة ومؤشّراتها.

وعليه فإنّ توزيع الأمور على ثنائيّة الدين والعلم خاطئ بهذا المنظور وإن صحّ بمنظور آخر.

التوزيع الصائب لثنائيّة العلم والإيمان

توضيح ذلك: أنّ توزيع الأمور على ثنائيّة العلم والإيمان يمكن أن يُقرَّر على وجوه ثلاثة ..

(الوجه الأوّل): أن يكون المنظور بهذا التوزيع إلغاء قيمة العقل والبديهيّات العقليّة فيما يرد به الدين، أو قُل جواز القبول بأيّ دين ولو قام على أسس مجافية للعقل، كما يعلّل بعض المسيحيّين الجمع بين وحدة الإله وبين ألوهيّة كلٍّ من الله تعالى والمسيح وأمّه

الطاهرة على أساس إيمانيّ.

وهذا الوجه خاطئ وغير معقول؛ فإنّ الدين الحقّ يعتمد على العقل المُستنير والتأمّل الراشد في دعوته للناس كما يؤكّد القرآن الكريم.

وعليه فهو يعوّل على التذكير والتنبيه والإيقاظ دون التحميل المتكلّف ومصادمة البديهيّات العقليّة.

(**الوجه الثاني**): أن يُراد بهذا التوزيع أنّ العلم تابع للمؤشّرات الموضوعيّة، وأمّا الإيمان فهو مبنيّ على الإحساس الداخليّ والشعور الباطنيّ، ولا مجال لنفي معطيات هذا الشعور من خلال التأمّل العقليّ، فيقول القائل مثلاً: (إنّي دخلت المعبد الهندوسيّ فحصلَتْ لي حالة روحانيّة)، فيدلّ على وجود الإله في هذا المعبد.

وهذا الوجه خاطئ؛ لأنّه أيضاً يقتضي جواز رفع اليد عن البديهيّات العقليّة بالمشاعر الداخليّة، وهو باطل بالبداهة. مضافاً إلى أنّه لا دلالة لشعور الإنسان بشيءٍ بشكلٍ مطلقٍ على وجود ذلك الشيء فعلاً، لأنّ الأديان الخاطئة أيضاً تؤدّي إلى مثل هذه المشاعر والحالات الروحيّة. والسرّ فيه أنّ أصل شعورٍ ما قد يكون فطريّاً لكنّه يوجَّه إلى منحى خاطئ وغير حكيم، وعليه فإنّ تلك الحالات يجوز أن تنشأ عن استثمار مشاعر فطريّة في اتّجاه معيَّن، فلا دلالة في صدق تلك المشاعر على صحّة هذا الاتّجاه الخاصّ.

فهذا النحو من الاستدلال يشبه ما لو استدّل المرء ـ مثلاً ـ على كون هذه المرأة أمّاً لهذا الطفل لأنّها تشعر بالحنان تجاهه، كما أنّ الطفل يجد تعلّقاً شديداً بها للاعتقاد بأنّها أمّه، فهذا دليل كونه ولداً لها، وهذا غير صحيح كما هو ظاهر.

(**الوجه الثالث**): أن يُراد بتوزيع منبع المعلومات على العقل والدين أن يكون التعويل على العقل في إدراك الدين الحقّ ثمّ القبول بالمعطيات التي ترد في هذا الدين ممّا هو خارج عن حدود الإدراك العقليّ نفياً أو إثباتاً.

وهذا الوجه صحيح وموافق مع الرشد والمنطق كما يجري عليه الإنسان في سائر شؤون الحياة، فهو يشخّص الطبيب القدير مثلاً ثمّ يسلّم له فيما يذكره ممّا لا سبيل للمريض إلى التحقّق منه، حتّى إذا استبعد قول الطبيب بعض الاستبعاد، وهكذا الحال في مورد الاعتماد على سائر أهل الخبرة.

دلالة حجّة الرسالات على وحدة الإله

(الدليل الثالث): ـ على وحدة الإله ـ هو حجّة بعث الرسل، وذلك من جهة أنّ الرسالة بما يصحبها من الخوارق تدلّ أنّها تنبع عن منشأ فوق بشريّ، فيصحّ ذلك دليلاً على وجود الله سبحانه.

ومن المعلوم أنّ الرسل الإلهيّة لم يبلّغوا إلّا بوجود إله واحد، وهو الله تبارك وتعالى، بل بلّغت كل الرسالات عن حصر الإله فيه سبحانه وإرساله لهذه الرسل، قال تعالى[1]: **﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾**.

وقد قال الإمام علي عليه السلام من هذا المنطلق في وصيّة له إلى ابنه الحسن بن علي عليه السلام[2]: ((وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ ولَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ))، ومعنى ذلك أنّه لو كان هناك إله غير الله سبحانه فالمفروض أن تكون لهذا الإله قدرات خارقة وأن يبلّغ هذا الشيء إلى الإنسان.

يُضاف إلى ذلك: أنّ الله سبحانه قد شهد بوحدانيّته؛ ومن ثَمّ جاء في القرآن الكريم قوله تعالى[3]: **﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا**

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٤.

(٢) نهج البلاغة ص:٣٩٦.

(٣) سورة آل عمران: ١٨.

هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وهو تعالى بطبيعة صفاته الكماليّة صادق في قوله، ولن يقول غير الحقّ ـ كما سيأتي توضيح ذلك ـ فإذا أثبت لنفسه الوحدانيّة كما جاء في الأديان يكون ذلك حجّةً على وحدانيّته.

نعم، قد يفترض المرء وجود إله مُعرِض عن التعريف بنفسه راغب عن التصادم مع الإله الفاعل، لكنّ هذا الافتراض مجرّد تخيُّل بعيد.

عوامل الاعتقاد بتعدّد الآلهة في الأديان

(الأمر الرابع): في عوامل الاعتقاد بتعدّد الآلهة في الأديان. فقد يُطرح بالنظر إلى ما تقدّم أنّه إذا كان وجود إلهٍ ثانٍ خرافيّاً وموهوماً بهذه الدرجة فلماذا تقبّله الإنسان ووُجِدَ الشرك في مختلف الأقوام.

والجواب: إنّ الدراسات التاريخيّة تدلّ على حدوث الشرك في الأديان لعوامل ثانويّة طارئة فيما يلي بعضها ..

(العامل الأوّل): الغلوّ في الأولياء، نظير الغلوّ الذي حدث في شأن السيّد المسيح عليه السلام في أوساط أتباعه.

وقد اعتُني في الأديان وفي دين الإسلام بالخصوص بأن يُذكر الأنبياء في النصوص الدينيّة بما يتمثّل أنّهم عباد مملوكون لله لا يملكون خزائن الله، ولا يعلمون الغيب إلّا ما أفضى الله سبحانه به إليهم، وأنّهم يخضعون لإرادته إن شاءوا وإن أبوا، كما اعتنى القرآن الكريم ببيان هذه المعاني مكرَّراً في ذكر سير الأنبياء عليهم السلام وأحوالهم.

وما يوجب الغلوّ في الأنبياء والأوصياء والأولياء أمور متعدّدة ..

(منها): الظلم الذي جرى عليهم من أعدائهم، فكان الغلوّ فيهم ضرباً من ردّ الفعل العاطفيّ غير الواعي تداركاً لهذه الظُلامة.

و**(منها)**: بعض وجوه المحبّة التي تغلب فيها العاطفة على العقل، فإنّ المحبّة قد

تدعو إلى مغالاة الإنسان فيمن يحبّه وإثبات مقامات له من دون علم وبصيرة، وقد عُلم أنّ حبّ الشيء يُعمي ويُصمّ.

و(**منها**): المباهاة بهم في مقابل الآخرين، فيدّعي المسيحيّون ـ مثلاً ـ أنّهم يتمسّكون بابن الإله، بينما لا يبلغ من يتمسّك به الآخرون هذه المنزلة.

و(**منها**): بعض الظواهر الخارقة التي اتّفقت لهم من قبيل ولادة المسيح عليه السلام من غير أب، ورجوع عزير إلى الحياة بعد موته ونحو ذلك.

(**العامل الثاني**): ـ لتعدّد الآلهة ـ هو التنافس بين الأقوام، حيث استوجب ذلك أن يجعل كلّ قوم منهم لنفسه إلهاً في مقابل إله الأقوام الآخرين، وهذا الموجب ينطبق بوضوح في شأن الأقوام الذين فرضوا لأنفسهم إلهاً خاصّاً بهم، كما كان عليه الحال عند العرب حيث صنعت كلّ قبيلة لنفسها إلهاً أو أزيد، حتّى أنّ قريش التي كانت تعبد إله إبراهيم عليه السلام الواحد ـ الذي هو صاحب البيت الحرام ـ اتّخذت لنفسها أصناماً في مقابل الأصنام التي كانت تؤلّه من قِبَل سائر الأقوام.

وقد جاء في الآية الشريفة[1] في شأن قوم موسى، أنّهم قالوا بعد نجاتهم من فرعون ـ مع ما رأوه من آيات الله سبحانه وتعالى على يد موسى عليه السلام ـ: ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾.

(**العامل الثالث**): ـ الموجب لتعدّد الآلهة ـ تحريف النصوص الدينيّة عن مؤدّياتها؛ فإنّ هذه النصوص قد تشتمل على تعابير متشابهة ومجازيّة، فتوجّه على أنّها تعني ألوهيّة غير الله سبحانه كما في الإنجيل الموجود من التعبير عن المسيح عليه السلام بأنّه (ابن الله)، فيُظَنّ أنّه يقتضي كونه من الذات الإلهيّة، بالرغم من أنّه تعبير عن ضرب من الاختصاص، ولا

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٨.

علاقة له بكونه من الذات الإلهيّة، وقد جاء في الإنجيل التعبير عن آخرين أيضاً بأنّهم أبناء الله.

وقد ورد في القرآن الكريم في شأن المسيح أنّه روح منه[1]، فيتأتّى ادّعاء أنّ في ذلك دلالة على أنّه عليه السلام قبس من ذات الإله، مع أنّه بعيد عن منظور النصّ تماماً.

فهذه بعض العوامل الباعثة على طروّ تعدّد الآلهة في اعتقاد الأقوام.

إذاً نلاحظ من خلال ما تقدّم: أنّ أدلّة وجود الإله تقتضي وحدته.

استنتاج

النتيجة التي نصل إليها: هي أنّ وحدانيّة الإله أمر شبه بديهيّ، بل هو أبده ببعض الاعتبارات من أصل وجود الخالق، فدعوى وجود آلهة متعدّدة إذا ما تأمّلها الإنسان جيّداً وجدها من قبيل الخرافات والأوهام.

---

(١) سورة النساء: ١٧١.

البحث الثاني: سنخ وجود الله سبحانه

◆ أمور لا بدّ من البحث فيها

◆ (١). دلالة الفطرة والعقل على مغايرته تعالى للكائنات

◆ (٢). دلالة النصوص الدينيّة على مغايرته سبحانه مع الكائنات

◆ (٣). ما يتفرّع على معرفة مغايرته سبحانه مع مخلوقاته.. في مسائل

عدم استطاعة الإنسان إدراك سنخ وجوده تعالى

عدم محدوديّة الله سبحانه بمثل حدود الأجسام

ليست علاقته تعالى بالأجسام كعلاقة الأرواح أو الأجسام ببعضها

تعذّر الإحساس بالله سبحانه

لا محدوديّة زمانيّة لله سبحانه

◆ (٤). التباسات طرأت بتوهّم ثبوت بعض خصائص الأجسام لله تعالى

◆ عوامل الفهم الخاطئ للنصوص الدينية

سنخ وجود الله سبحانه

(البحث الثاني): ـ من مباحث معرفة الإله ـ في سنخ وجوده تعالى بالمقارنة مع وجود الكائنات الأخرى.

تتطابق معطيات العقل الراشد والمنهج العلميّ والنصوص الدينيّة الموثوقة المحكمة على أنّ سنخ وجود الله سبحانه مغاير لوجود سائر الموجودات، فهو ليس من الأمور المادّيّة التي تتّصف بخصائص فيزيائيّة وكيميائيّة، ولا شيئاً روحانيّاً على حدّ الروحانيّات المخلوقة كالروح الإنسانيّة والملائكة.

وهذا أصل كلّيّ وعامّ تتفرّع عليه فروع عديدة في الانطباع الصحيح عن وجود الله سبحانه.

نعم، قد توجد هناك نصوص متشابهة توهم خلاف ذلك بدواً، ولكنّها عند التأمّل الراشد فيها لا دلالة حقيقيّة في الموثوق منها على ما توهمه بدواً، لا سيّما إذا تأمّلها المرء مع النصوص المحكمة في مجموعة واحدة.

أمور لا بدّ من البحث فيها

وعليه فإنّ هناك أموراً لا بدّ من البحث عنها وإيضاحها، وهي ..

(١). اقتضاء العقل الراشد على الإجمال.

(٢). مؤدّى النصوص الدينيّة الموثوقة والمحكمة.

(٣). ما يتفرّع على هذا الأصل الكلّيّ من أمور في شأن الإله.

(٤). النصوص المتشابهة التي توهم ثبوت بعض خصائص الأجسام لله سبحانه وتعالى، وتوضيح المراد بها.

دلالة الفطرة والعقل على مغايرته تعالى للكائنات

(الأمر الأوّل): إنّ العقل الراشد يقتضي أنّ وجود الله سبحانه مغاير لسنخ الموجودات.

والوجه فيه: أنّه إذا كان عالم الطبيعة بل وعالم الروحانيّات التي هي من قبيل عالم الملائكة أشياءً مخلوقة لله سبحانه فمن الطبيعيّ أن يكون سنخ وجود الله سبحانه مغايراً مع وجود عالمي الطبيعة والروحانيّات المشار إليهما، وليس من المعقول أن يكون سنخ وجوده من قبيل وجودهما تماماً، ويمتاز عنهما في الاستغناء عن السبب فحسب.

وبتعبير أوضح: إنّه بعد أن ثبت أنّ الوجود المادّيّ والوجود الروحانيّ المحدود ـ كالروح الإنسانيّة ـ قد وُجِدَ بسبب الخالق، فإنّ ذلك يدلّ على أنّ طبيعة وجود عالم المادّة وعالم الروحانيّات هو وجود غير مستغنٍ عن إيجاده من قِبَل خالق، فهو مفتقر إلى من يوجده. **وعليه** يجب أن يكون الموجد لها من سنخ مختلف عنها وأعلى من مستواها، وليس من المعقول أن يكون الموجِد لهذه الكائنات من سنخ الموجودات التي خلقها وأوجدها من العدم، وإلّا احتاج هو أيضاً إلى موجد مثلها للسبب نفسه، وهذه قضيّة ميسَّرة ومفهومة.

فالحاصل: أنّه إذا كان الله سبحانه هو خالق هذه الطبيعة وما يلحق بها من الروحانيّات، وهو الموجد لها فإنّ سنخ وجوده بطبيعة الحال يكون فوقها ولا يكون من سنخها[1].

---

(١) وقد يُضاف إلى ذلك قضاء الفطرة أيضاً بمغايرة وجود الله سبحانه سنخاً مع الخلق، فقد تقدّم أنّ الإنسان بفطرته يجد شعوراً داخليّاً بكائن أعلى، وحينئذٍ يمكن القول: إنّه يبحث عن كائن مختلف سنخاً عن الموجودات. **نعم** قد يتّفق أن يجعل لهذا الشيء رمزاً عادّياً، وقد يتبدّل هذا الرمز بالتدريج إلى الاعتقاد بألوهيّته وما إلى ذلك. ولكنّ هذا لا ينافي أصل توجيه الفطرة السليمة الإنسان إلى أنّ هناك كياناً مغايراً

هذا، وقد ذُكر في بعض الأبحاث الفلسفيّة مثل هذه المعاني مقروناً باصطلاحات لا ضرورة إليها أو زيادات لا وضوح فيها، ولا حاجة إلى التعرّض لذلك في هذا البحث، فإنّ المقصود به إسعاف الفهم الراشد العامّ وفق ما جاء في الخطاب القرآنيّ وآثار النبيّ ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، ليكون ثقافةً عامّةً لأهل الدين.

دلالة النصوص الدينيّة على مغايرة الله سبحانه للكائنات

(الأمر الثاني): دلالة النصوص الدينيّة على مغايرة سنخ وجود الله سبحانه لخلقه.

وهذا المعنى ممّا استُفيد على وجه عامّ من قوله تعالى[(١)]: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾، فهذه الآية تفيد قاعدةً قرآنيّةً هي مغايرة الله سبحانه مع الخلق في سنخ وجوده[(٢)]، وقد أوضح الإمام علي عليه السلام في عدّة خطب توحيديّة هذه القاعدة، توضيحاً بليغاً[(٣)].

مع هذه الكائنات المخلوقة يكون إلهاً لها، وقد ذكرنا في ما سبق أنّ تقبّل الإنسان لألوهيّة الأشياء المادّيّة ناشئ عن عوامل ثانويّة زائفة.

هذا، ولكن قد يُلاحظ على ذلك: بأنّ من الأقوام مَن عبد الشمس والقمر والنجوم، فيبدو أنّهم اعتقدوا فيها أنّها كائنات عظيمة تتمتّع بقدرات ألوهيّة بالرغم من أنّها أجسام مرئيّة، فلا يمكن الجزم باقتضاء الفطرة مغايرة وجود الإله مع الخلق، فلاحظ.

(١) سورة الشورى: ١١.

(٢) علماً أنّ سياق الآية قد يقتضي النظر إلى بيان أنّ أيّ كائنٍ آخر غير الله سبحانه لا يتّصف بخصائص الألوهيّة، وذلك ردّاً على الالتزام بألوهيّة أشياء أخرى. لكنّ هذا لا ينافي أن يكون مفاد هذه الجملة نفي تماثل الله سبحانه مع سائر الأشياء.

(٣) ولا بأس بذكرها للانتفاع بها في هذا البحث والأبحاث المقبلة ..

١ ـ قال عليه السلام: ((الحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القَائِلُونَ، وَلاَ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ العَادُّونَ، ولاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ المُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ الهِمَمِ، وَلاَ يَنَالُهُ غَوْصُ الفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلاَ نَعْتٌ

مَوْجُودٌ، وَلا وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَلا أَجَلٌ مَمْدُودٌ. فَطَرَ الخَلائِقَ بِقُدْرَتِهَ، وَنَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ.

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْديقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الاْخْلاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الاْخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَة أَنَّهَا غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوف أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَد جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ: «فِيمَ؟» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: «عَلامَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ.

كائِنٌ لاَ عَنْ حَدَث، مَوْجُودٌ لاَ عَنْ عَدَم، مَعَ كُلِّ شَيْء لاَ بِمُقَارَنَة، وَغَيْرُ كُلِّ شيء لا بِمُزَايَلَة، فَاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالاْلَةِ، بَصِيرٌ إذْ لاَ مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إذْ لاَ سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلاَ يَسْتوْحِشُ لِفَقْدِهِ. أَنْشَأَ الخَلْقَ إنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلاَ رَوِيَّة أَجَالَهَا، وَلاَ تَجْرِبَة اسْتَفَادَهَا، وَلاَ حَرَكَة أَحْدَثَهَا، وَلاَ هَمَامَةِ نَفْس اضْطَرَبَ فِيهَا)) نهج البلاغة ص:٣٩ـ٤٠، الخطبة:١.

٢ ـ وقال عليه السلام : ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الاْمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلاَمُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ؛ فَلاَ عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلاَ قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلاَ شيءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ، فَلاَ اسْتِعْلاَؤُهُ بِاعَدَهُ عَنْ شَيْء مِنْ خَلْقِهِ، وَلاَ قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ في المَكَانِ بِهِ، لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، ولَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلاَمُ الْوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقولُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلوّاً كَبِيراً!)) نهج البلاغة ص:٨٧ ـ ٨٨.

٣ ـ وقال عليه السلام: ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حالاً، فَيَكُونَ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً، وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً.

كُلُّ مُسَمّىً بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيز غَيْرَهُ ذَلِيلٌ، وَكُلُّ قَوِي غَيْرَهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مَالِك غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ، وَكُلُّ قَادِر غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَيَعْجَزُ، وَكُلُّ سَمِيع غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الأَصْوَاتِ، ويُصِمُّهُ كَبِيرُهَا، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِير غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الاْلْوَانِ وَلَطِيفِ الأَجْسَامِ، وَكُلُّ ظَاهِر غَيْرَهُ غَيْرُ بَاطِن، وَكُلُّ بَاطِن غَيْرَهُ غَيْرُ ظَاهِر.

لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَان، وَلاَ تَخَوُّف مِنْ عَوَاقِبِ زَمَان، وَلاَ اسْتِعَانَة عَلَى نِدّ مُثَاوِر، وَلاَ شَرِيك مُكَاثِر، وَلاَ ضِدّ مُنَافِر؛ وَلكِنْ خَلائِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ، لَمْ يَحْلُلْ فِي الأَشْيَاءِ فَيُقَالَ: هُوَ فيها كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالَ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ.

لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا ابْتَدَأَ، وَلاَ تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ، وَلاَ وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ، وَلاَ وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضى وَقَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ. المَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ، المَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ!)) نهج البلاغة ص:٩٦، الخطبة:٦٥.

٤ ـ وقال عليه السلام في خطبة تُعرف بخطبة الأشباح: ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ يَفِرُهُ الْمَنْعُ وَالْجُمُودُ، وَلاَ يُكْدِيهِ الإِعْطَاءُ وَالْجُودُ؛ إِذْ كُلُّ مُعْط مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَانِع مَذْمُومٌ مَا خَلاَهُ، وَهُوَ الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ، وَعَوَائِدِ المَزِيدِ وَالْقِسَمِ، عِيَالُهُ الْخَلاَئِقُ، ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ، وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ، وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ، وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ.

الاَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيءٌ قَبْلَهُ، وَالاخِرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ، وَالرَّادِعُ أَنَاسِيَّ الأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ، مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الحَالُ، وَلاَ كَانَ فِي مَكَان فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الانتِقَالُ، وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ، وَضَحِكَتْ عِنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ، مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ وَالْعِقْيَانِ، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ، مَا أَثَّرَ ذلِكَ فِي جُودِهِ، وَلاَ أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الاَنْعَامِ مَا لاَ تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الاَنَامِ، لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لاَ يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ، وَلاَ يُبْخِلُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ.

فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ: فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ وَاسْتَضِىءْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ، وَلاَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله) وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللهِ عَلَيْكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، الاْقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللهُ ـ تَعَالَى ـ اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً، فاقْتَصِرْ عَلَى ذلِكَ، وَلاَ تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ.

هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الاَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ، وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ، وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لاَ تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتنالَ عِلْمَ ذَاتِهِ، رَدَعَهَا وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ، مُعتَرِفَةً بِأَنَّهُ لاَ يُنَالُ بِجَوْرِ الاعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ، وَلاَ تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلاَلِ عِزَّتِهِ.

الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَال امْتَثَلَهُ، وَلاَ مِقْدَار احْتَذَى عَلَيْهِ، مِنْ خَالِقِ مَعْبُود كَانَ قَبْلَهُ، وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ، وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَاعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ، مَا دَلَّنا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَظَهَرَتِ الْبَدَائِعُ الَّتِي أَحْدَثَها آثَارُ صَنْعَتِهِ، وَأَعْلاَمُ حِكْمَتِهِ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلاً عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً، فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، وَدَلاَلَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ.

فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ، وَتَلاَحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ، وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لاَنِدَّ لَكَ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ: ﴿**تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ، إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ، وَجَزَّأُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّماتِ بِخَوَاطِرِهِمْ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى، بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ.

فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَالْعَادِلُ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ، وَإِنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ، فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً، وَلاَ فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً.

ومنها: قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ، وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ، وَوَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ، وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الاْنْتِهَاءِ إِلى غَايَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ، وَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتِ الأُمُورُ عَنْ مَشيئَتِهِ؟ الْمُنْشِىءُ أَصْنَافَ الأَشْيَاءِ بِلاَ رَوِيَّةِ فِكْر آلَ إِلَيْهَا، وَلاَ قَرِيحَةِ غَرِيزَة أَضْمَرَ عَلَيْهَا، وَلاَ تَجْرِبَة أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ)) نهج البلاغة ص:١٢٤ـ١٢٧ الخطبة:٩١.

٥ ـ وقال عليه السلام: ((الْحَمْدُ للهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّته، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لاَ شَبَهَ لَهُ. لاَ تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ، وَلاَ تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لِافْتِرَاق الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ

وَالْمَرْبُوبِ. الأَحَدُ لاَ بِتَأْوِيلِ عَدَد، وَالْخَالِقُ لاَ بِمَعْنَى حَرَكَة وَنَصَب، وَالسَّمِيعُ لاَ بِأَدَاة، وَالْبَصِيرُ لاَ بِتَفْرِيقِ آلَة، وَالشَّاهِدُ لاَبِمُمَاسَّه، وَالْبَائِنُ لاَبِتَرَاخِي مَسَافَة، وَالظّاهِرُ لاَبِرُؤْيَة، وَالْبَاطِنُ لاَ بِلَطَافَة.

بَانَ مِنَ الأَشْيَاءِ بَالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الأَشْيَاءُ مِنْهُ بَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ.

مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: كَيْفَ، فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: أَيْنَ، فَقَدْ حَيَّزَهُ. عَالِمٌ إِذْ لاَ مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لاَ مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لاَ مَقْدُورٌ)) نهج البلاغة ص:٢١١ـ ٢١٢، الخطبة:١٥٢.

٦ ـ وقال عليه السلام: ((الْحَمْدُ لله الَّذِي انْحَسَرَتِ الاَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ! هَوَ اللهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيد فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ بِتَقْدِير فَيَكُونَ مُمَثَّلاً. خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيل، وَلاَ مَشُورَةِ مُشِير، وَلاَ مَعُونَةِ مُعِين، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ)) نهج البلاغة ص:٢١٦ـ٢١٧، الخطبة:١٥٥.

٧ ـ وقال عليه السلام: ((اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وتُعْطِي.. مَداً لاَ يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلاَ يَفْنَى مَدَدُهُ. فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ إِلاَّ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ: حَيٌّ قَيُّومٌ، لاَ تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ، لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ، أَدْرَكْتَ الأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ الأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ، وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سَوَاتِرُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ.

فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً)) نهج البلاغة ص:٢٢٤ـ ٢٢٥، الخطبة:١٦٠.

٨ ـ وقال عليه السلام: ((الْحَمْدُ لله خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ الْمِهَادِ، وَمُسِيلِ الْوِهَادِ، وَمُخْصِبِ النِّجَادِ، لَيْسَ لأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلاَ لأَزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ، هُوَ الأَوَّلُ لَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقي بِلا أَجَل، خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ، حَدَّ الأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا، لاَ تُقَدِّرُهُ الأَوْهامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلاَ بِالْجَوَارِحِ وَالأَدَوَاتِ، لاَ يُقَالُ لَهُ: «مَتَى»؟ وَلاَ يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ بـ«حَتَّى»، الظَّاهِرُ لاَ يُقالُ: «مِمَّ»؟ وَالْبَاطِنُ لاَ يُقَالُ: «فِيمَ»؟، لاَ شَبَحٌ فَيُتَقَصَّى، وَلاَ مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى، لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الأَشْيَاءِ بِالْتِصَاق، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاق،

وَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَة، وَلاَ كُرُورُ لَفْظَة، وَلاَ ازْدِلاَفُ رَبْوَة، وَلاَ انْبِسَاطُ خُطْوَة فِي لَيْل دَاج، وَلاَ غَسَق سَاج، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْكُرُورِ وَالأُفُولِ، وَتَقْلِيبِ الأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْل مُقْبِل، وَإِدْبَارِ نَهَار مُدْبِر، قَبْلَ كُلِّ غَايَة وَمُدَّة، وَكُلِّ إِحْصَاء وَعِدَة، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الأَقْدَارِ، وَنِهَايَاتِ الأَقْطَارِ، وَتَأَثُّلِ الْمَسَاكِنِ، وَتَمَكُّنِ الأَمَاكِنِ؛ فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ.

لَمْ يَخْلُقِ الأَشْيَاءَ مِنْ أُصُول أَزَلِيَّة، وَلاَ مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيَّة، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ، لَيْسَ لِشَيْء مِنْهُ امْتِنَاعٌ، وَلاَ لَهُ بِطَاعَةِ شَيْء انْتِفَاعٌ، عِلْمُهُ بِالأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السماوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الأَرَضِينَ السُّفْلَى)) نهج البلاغة ص:٢٣٢ـ٢٣٣، الخطبة:١٦٣.

٩ ـ وقال عليه السلام بعد حمد الله تعالى: ((لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مُوْرُوثاً هَالِكاً، وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلاَ زَمَانٌ، ولَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ وَلاَ نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلاَمَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ.. وَالْحَمْدُ لله الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوْ عَرْشٌ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ، لاَ يُدْرَكُ بِوَهْم، وَلاَ يُقَدَّرُ بِفَهْم، وَلاَ يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلاَ يَنْقُصُهُ نَائِلٌ، وَلاَ يَنْظُرُ بِعَيْن، وَلاَ يُحَدُّ بِأَيْن، وَلاَ يُوصَفُ بِالأَزْوَاجِ، وَلاَ يُخْلَقُ بِعِلاَج، وَلاَ يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلاَ يُقَاسُ بِالنَّاسِ، الَّذِي كَلَّمَ مُوسى تَكْلِيماً، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً، بِلاَ جَوَارِحَ وَلاَ أَدَوَات، وَلاَ نُطْق وَلاَ لَهَوَات.

بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جَبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجُراتِ الْقُدُسِ مُرْجَحِنِّينَ، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. وَإِنَّمَا يُدرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَالأَدوَاتِ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ، فَلاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلاَم، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُور)) نهج البلاغة ص:٢٦٠ـ٢٦٢، الخطبة:١٨٢.

١٠ ـ وقال عليه السلام: ((الْحَمْدُ لله الَّذِي لاَ تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلاَ تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلاَ تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلاَ تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لاَ شَبَهَ لَهُ، الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِه، وَقَامَ بِالْقِسطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ، وَاحِدٌ لاَ بِعَدَد، وَدَائِمٌ لاَ بِأَمَد، وَقَائِمٌ لاَ بَعَمَد، تَتَلَقَّاهُ الأَذْهَانُ لاَ بِمُشَاعَرَة، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي

لاَ بِمُحَاضَرَة، لَمْ تُحِطْ بِهِ الأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا، لَيْسَ بِذِي كِبَر امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلاَ بِذِي عِظَم تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً بَلْ كَبُرَ شَأْناً، وَعَظُمَ سُلْطَاناً))

نهج البلاغة ص:٢٦٩، الخطبة:١٨٥.

١١ ـ وقال عليه السلام: ((مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلاَ حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلاَ إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلاَ صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوف بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِم فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ. فَاعِلٌ لاَ بِاضْطِرَابِ آلَة، مُقَدِّرٌ لاَ بِجَوْلِ فِكْرَة، غَنِيٌّ لاَ بِاسْتِفَادَة. لاَ تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ، وَلاَ تَرْفِدُهُ الأَدَوَاتُ، سَبَقَ الأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالابْتِدَاءَ أَزَلُهُ. بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لاَ مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لاَ ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لاَ قَرِينَ لَهُ. ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ. مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِداتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا.

لاَ يُشْمَلُ بِحَدّ، وَلاَ يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الآلاَتُ إِلَى نَظَائِرِهَا، مَنَعَتْهَا (مُنْذُ) الْقِدْمَةَ، وَحَمَتْهَا (قَدُ) الأَزَلِيَّةَ، وَجَنَّبَتْهَا (لَوْلاَ) التَّكْمِلَةَ! بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ.

لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ؟! إذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلاَمْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلاَلْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ. وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ.

الَّذِي لاَ يَحُولُ وَلاَ يَزُولُ، وَلاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ الأُفُولُ. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً، جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الأَبْنَاءِ، وَطَهُرَ عَنْ مُلاَمَسَةِ النِّسَاءِ. لاَ تَنَالُهُ الأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلاَ تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلاَ تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلاَ تَلْمِسُهُ الأَيْدِي فَتَمَسَّهُ.

وَلاَ يَتَغَيَّرُ بِحَال، وَلاَ يَتَبَدَّلُ فِي الأَحْوَالِ، وَلاَ تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامُ، وَلاَ يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلاَمُ، وَلاَ يُوصَفُ بِشَيء مِنَ الأَجْزَاءِ، وَلاَ بِالْجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ، وَلاَ بِعَرَض مِنَ الأَعْرَاضِ، وَلاَ بِالْغَيْرِيَّةِ وَالأَبْعَاضِ.

ويلاحَظ أنّ الإمام علي عليه السلام هو أوّل من اتّبع المنهج القرآنيّ في عقلنة الأمور المتعلّقة بالباري سبحانه، واتّصف كلامه في الحديث عن ذلك بوضوح الفطرة، وعلم الربّانييّن المسدّدين من السماء في الحديث عن هذه العوالم الغامضة.

ويبدو أنّ الباعث له عليه السلام على ذلك هو تولّد الشبهات تدريجاً في المجتمع

وَلاَ يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلاَ نِهَايَةٌ، وَلاَ انقِطَاعٌ وَلاَ غَايَةٌ، وَلاَ أَنَّ الأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيَهُ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ، فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ. لَيْسَ فِي الأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ، وَلاَ عَنْهَا بِخَارِجٍ. يُخْبِرُ لاَ بِلِسَان وَلَهَوَات، وَيَسْمَعُ لاَ بِخُرُوق وَأَدَوَات، يَقُولُ وَلاَ يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلاَ يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلاَ يُضْمِرُ.

يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّة، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّة. يَقُولُ لِمَا أَرَادَ كَوْنَهُ كُنْ فَيَكُونُ، لاَ بِصَوْت يَقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاء يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثَانِياً.

لاَ يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ، وَلاَ لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ والْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ)) نهج البلاغة ص:٢٧٢ـ ٢٧٤، الخطبة:١٨٦.

قلت: قوله: ((وَكُلُّ قَائِم فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ)) قد لا يكون النقل دقيقاً، والصواب أن يكون (في) زيادة خاطئة، فالمراد أنّ كلّ شيء قائم غير الله سبحانه فإنّه سوف تصيبه العلّة والاختلال، فهو لا يثبت على حال واحد. ومعنى الجملة مع وجود (في) أنّ الشيء الذي يكون قائماً في شيء آخر فهو معلول لغيره، وهذا غير مناسب؛ وذلك لأنّ هذا لا يعمّ جميع الأشياء، بل يختصّ بما كان قائماً في شيء آخر، على أنّ كلمة (معلول) بهذا المعنى اصطلاح كلاميّ متأخّر، وقد اختلف علماء اللغة في تجويزه وعدمه، فلاحظ.

١٢ ـ وقال عليه السلام: ((الْحَمْدُ للهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بَعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ، الْبَاطِنِ بِجَلاَلِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ، الْعَالِمِ بَلاَ اكْتِسَاب وَلاَ ازْدِيَاد، وَلاَ عِلْم مُسْتَفَاد، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الأُمُورِ بِلاَ رَوِيَّة وَلاَ ضَمِير، الَّذِي لاَ تَغْشَاهُ الظُّلَمُ، وَلاَ يَسْتَضِيءُ بِالأَنْوَارِ، وَلاَ يَرْهَقُهُ لَيْلٌ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ، لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالإِبْصَارِ، وَلاَ عِلْمُهُ بِالإِخْبَارِ)) نهج البلاغة ص:٣٢٩ـ ٣٣٠، الخطبة:٢١٣.

الإسلاميّ في أثر عوامل متعدّدة، منها التمعّن في النصوص الدينيّة المتشابهة، وتنزّل مستوى الفهم العربيّ بعد دخول سائر الأقوام في الإسلام، والاختلاط بأهل الكتاب، وغير ذلك، فأدّى ذلك كلّه إلى مخاطبة الإمام عليه السلام عامّة الناس بتوضيح الفاصل بين الله سبحانه وبين خلقه.

ما يتفرّع على معرفة مغايرته سبحانه مع مخلوقاته

(**الأمر الثالث**): إنّه يتفرّع على معرفة مغايرته تعالى مع مخلوقاته مسائل ..

عدم استطاعة الإنسان إدراك سنخ وجوده تعالى

(**الأولى**): إنّه ليس باستطاعة الإنسان إدراك سنخ وجود الله سبحانه؛ وذلك لأنّ وجوده تبارك وتعالى ليس من الأمور التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بنحوٍ مباشر، أو بالمقارنة مع الأمور المعهودة له، وبذلك يتعذّر أن يعرف كنه الله جلَّ جلاله وسنخ وجوده..

أمّا (**الشقّ الأوّل**) ـ أي أنّه تعالى ليس من الأمور التي يقف عليها الإنسان بنحوٍ مباشر ـ فلأنّ الإنسان إنّما يقف على وجود الله سبحانه إمّا بنحو من الشعور الذي يجده في نفسه وإمّا بآياته من الكائنات.

وليس في الشعور الذي يجده دلالة على سنخ وجوده، ولكنّه نحو انجذاب فطريّ إلى كائن أعلى.

كما أنّ الكائنات إنّما تدلّ على وجوده لا على سنخه، بل تقدّم أنّ معرفته من خلال الكائنات تقتضي مباينته تعالى لها في سنخ وجودها.

وقد يقول قائل: إنّ مقتضى تواصل الإنسان مع الله سبحانه ـ كما يبني عليه الدين ـ أن يكون هناك اتّصال مباشر بينه وبين الله سبحانه، فكيف يتحقّق هذا الاتّصال المباشر من غير معرفة مباشرة.

والجواب عن ذلك: إنّ التواصل مع الله سبحانه يتحقّق من جهته تعالى بالإيحاءات إلى النفس الإنسانيّة، ومن جهة الإنسان بمخاطبة الله سبحانه، وهذا المقدار لا يقتضي معرفة الإنسان بسنخ وجود الله سبحانه.

إذاً ليس للإنسان قدرة على معرفة الله سبحانه بنحوٍ مباشر.

وأمّا **(الشقّ الثاني)** ـ من أنّ الإنسان لا يستطيع معرفة سنخ وجوده تعالى بنحو غير مباشر ـ فلأنّ معرفة الإنسان بالأمور التي لا يقف عليها مباشرةً إنّما يكون من خلال الأمور المعهودة له، فإذا كان الشيء الذي يتأمّله الإنسان من سنخ الأمور المعهودة له حينئذٍ يمكن للإنسان أن يعرف ذلك الشيء وسنخه، وأمّا إذا لم يكن من سنخ الأمور المعهودة له فلا يستطيع الإنسان أن يحدس بكنه ذلك الشيء.

ولا شكّ أنّ سنخ وجود الله سبحانه ليس من قبيل الأمور المادّيّة أو الأمور الروحانيّة كالملائكة والروح الإنسانيّة؛ فلا يمكن للإنسان معرفته.

والحاصل: أنّ ما لا يماثل شيئاً ممّا يعرفه الإنسان وفق مداركه لا سبيل له إلى تبيّن حقيقته، وقد قال الله سبحانه في شأن الروح[1]ـ والمراد به على الأقرب الروح المرسَل إلى الأنبياء ـ: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾، وفي ذلك إشارة إلى عدم استطاعة الإنسان إدراك الأمور الروحانيّة المخلوقة، فما بال الخالق لها.

هذا، على أنّ الإنسان على العموم لا يدرك كنه أيّ شيءٍ حتّى الأمور المادّيّة والمحسوسة له، فإنّه إنّما يعرفها بخواصّها وآثارها وليس بكنهها.

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

عدم محدوديّة الله سبحانه بمثل حدود الأجسام

(الثانية): إنّه ليس لله سبحانه محدوديّة الأجسام المكانيّة في العرض والطول والامتداد، فلا يحدّه سبحانه حدّ خاصّ ولا يحويه مكان معيَّن.

وعليه لا معنى لحركة الله سبحانه من مكان إلى مكان؛ لأنّ الحركة من شؤون الأجسام المحدودة.

وهذه صفة ينفرد بها الخالق تعالى بحسب النصوص الدينيّة، ولا يتّصف بها حتّى الروحانيّات المخلوقة لله سبحانه من قبيل الروح الإنسانيّة والملائكة، فالملائكة تتحرّك وتتّصف بالمحدوديّات على حدّ الأجسام، كما قال سبحانه[١]: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَومٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾، وقال عن الملائكة[٢]: ﴿**أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾.

وعليه فإنّ الأمور الروحانيّة وإن لم نكن نعلم طبيعة وجودها، ولكن يمكن القول على الإجمال إنّه لم يثبت كونها فوق الاتّصاف بالحدود المكانيّة والجسمانيّة.

نعم، ربّما بنت الفلسفة اليونانيّة على وجود كائنات روحانيّة متعالية عن المحدوديّة، ولكنّ ما جاء فيها افتراضات أشبه بالأوهام على حدّ أفكارهم عن الأفلاك وشؤونها، إذ لم تكن لهم أدوات التحقّق في مثل هذه الأمور؛ لأنّ العقل الإنسانيّ لا يدرك حدود الأمور الروحانيّة وتفاصيلها، وإذا سعى الإنسان إلى التأمّل في أشياء لا يجد أدوات مناسبة للوقوف على حالها أدّى ذلك بدلاً عن العلم والتبصّر إلى الأوهام والخرافات، وجملة من الأفكار المذكورة في علم الفلسفة القديمة أو في فيما يُعرف بـ(علم العرفان النظريّ) هي من

---

(١) سورة المعارج: ٤.

(٢) سورة فاطر: ١.

هذا القبيل.

ليست علاقته تعالى بالأجسام كعلاقة الأرواح أو الأجسام ببعضها

(الثالثة): إنّه ليست علاقة الله سبحانه بالأشياء الأخرى سنخ علاقة الجسم بالجسم أو الروح بالجسم، فهو وإن كان موجوداً في كلّ مكان، لكنّه كما قال الإمام علي عليه السلام[(١)]: ((مَعَ كُلِّ شَيْء لاَ بِمُقَارَنَة، وَغَيْرُ كُلِّ شيء لا بِمُزَايَلَة، فَاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالألَةِ)).

وعلى ضوء ذلك يتبيّن: أنّه ليس هناك معنىً لأيّ اتّحاد أو حلول بين الله سبحانه وبين الموجودات.

وذلك أنّ الاتّحاد إنّما يكون بين شيئين من سنخ واحد، فيتّحدان بنوع من الامتزاج والاختلاط، والله سبحانه وتعالى ليس من سنخ سائر الموجودات حتّى يمكن أن يعرض له نحو اتّحاد معها.

كما أنّ الحلول إنّما يكون بنحو تشبّث للحال بالمحلّ، ولا معنى لتشبّث الله سبحانه بشيء أصلاً فضلاً عن الأشياء المحدودة.

وعليه فإنّ دعاوي الحلول أو الاتّحاد أو التلبّس مع الله سبحانه ـ كما يوجد في تعابير بعض مَن يدّعي المعرفة ـ هي أمور موهومة لا دليل على شيء منها، بل لا معنى لها في حدّ نفسها بحسب التأمّل الشامل، وهذا أمر ميسَّر ومفهوم بالعقل الفطريّ والراشد.

تعذّر الإبصار الحسي بالله سبحانه

(الرابعة): إنّه لا سبيل إلى الإبصار الحسّيّ بالله سبحانه، كما قال تعالى[(٢)]: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾.

---

(١) نهج البلاغة ص:٤٠، الخطبة:١..

(٢) سورة الأنعام: ١٠٣.

والوجه في ذلك: أنّ الإبصار يرجع إلى انعكاس الضوء وارتداده من الشيء إلى شبكة العين على نحو صورة ضوئيّة لتنتقل إلى الدماغ. **وعليه** فهو فرع كون البصر أمراً مادّيّاً يؤدّي إلى ارتداد الضوء إلى العين، ولا معنى لإبصار الكائنات غير المادية أو حتى الروحانية إلّا أن تتمثّل كما ورد في الملائكة(١)، ولكن تمثّل الشيء ليس نفس الشيء بطبيعة الحال.

ويظهر بذلك الجواب عن سؤال يتوجّه إلى وجود الله سبحانه من المنطلق الحسّيّ، وهو أنّه إذا كان الله موجوداً فلماذا لا يمكن للإنسان رؤيته والإحساس به، وقد طُرح هذا السؤال في الأديان السابقة كما جاء عن موسى عليه السلام(٢): ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾، وجاء عن بني إسرائيل(٣): ﴿**فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً**﴾، وورد أيضاً عن هذه الأمّة(٤): ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا**﴾.

ويُلاحَظ في شأن هذا السؤال ..

(١). إنّ هذا السؤال يرتفع على ضوء ما تقدّم، من أنّ سنخ وجود الله سبحانه ليس من سنخ الوجود المادّيّ حتّى يكون قابلاً للرؤية، فهو تعالى بطبيعة وجوده غير قابل للإحساس المادّيّ.

وبتعبير آخر: الإحساس المادّيّ قاصر عن أن يكون أداةً لمعرفة الله سبحانه؛ وذلك لأنّ من الواضح في ضوء كشف العلم الحديث عن حقيقة الإبصار أنّ الإبصار ليس لازماً لمطلق وجود الشيء، وإنّما يُرى الشيء بتوسّط انعكاس الضوء من الأشياء؛ ومن ثَمّ لا تُرى

---

(١) كقوله تعالى عن الملَك الذي نزل على مريم عليها السلام: ﴿**فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾ سورة مريم:١٧.

(٢) سورة الأعراف: ١٤٣.

(٣) سورة النساء: ١٥٣.

(٤) سورة الفرقان: ٢١.

الأشياء في الظلمة. **وعليه** فإذا لم يكن سنخ وجود الشيء وجوداً يرتدّ الضوء منه إلى العين لم يكن قابلاً للرؤية.

(٢). على أنّ هذا السؤال ينبغي أن يكون قد زال في هذا العصر خاصّة؛ لأنّ العلم الحديث يحتمل وجود أمور مادّيّة لم يتيسّر بعد الاطّلاع عليها، كالمادّة المظلمة التي يُحتمل أن تكون أكثر الكون، بل يثق العلم الحديث بوجود أشياء لا يستطيع بعد من رؤيتها، مثل: نواة الذرّة، والإلكترونات من حولها؛ فإنّها لم تزل غير مرئيّة ولو بالمجاهر الإلكترونيّة، وإنّما يحدس بذلك من آثارها.

وعليه فإذا كان العلم الحديث يثق بوجود أشياء مادّيّة لا يراها ويتوقّع وجود غيرها فكيف يمكن أن يعتبر المرء عدم رؤية الباري دليلاً على عدم وجوده؟!

(٣). بل يكفي كمثالٍ لأمر يحرز وجوده ولكن لا يستطيع الإنسان رؤيته روح الإنسان.

والوجه في ذلك: أنّ الراجح حتّى بحسب معطيات العلم الحديث أنّ الإنسان ذو بُعد روحيّ، بالنظر إلى أنّ العمليّات الإدراكيّة والفكريّة والضمير الأخلاقيّ والاختيار الإنسانيّ لا يمكن تفسيرها بالتفسير المادّيّ الكيميائيّ الفيزيائيّ كما سبق الحديث عنه، ولكن مع ذلك فإنّ هذه الروح غير مرئيّة للإنسان، فنحن لا نرى أرواحنا كما نرى أجسامنا، ولا نرى أرواح الآخرين.

وعليه فالروح الإنسانيّة مثال يمكن أن يذعن به العلم الحديث لشيء لا يمكن الإحساس المباشر به، وإنّما يُلمَس من آثاره.

إذاً فالمفروض أن يكون عدم الإحساس المادّيّ بالله سبحانه من خلال الرؤية ـ مثلاً ـ أمراً مفهوماً في هذا العصر بشكل أوضح منه في الأزمنة السابقة، التي كان هناك مجال بعض الشيء لأصحاب التفكير المادّيّ أن ينكروا وجود أيّ شيء غير قابل للرؤية أصلاً.

لا محدوديّة زمانيّة لله سبحانه

(الخامسة): إنّ وجود الله سبحانه دائمٌ وباقٍ، ولكن مع ذلك فإنّه لا يُقدَّر وجوده بالأزمان ..

أمّا **(الجانب الأوّل)** فهو بالنظر إلى أنّ الله سبحانه قديم غير حادث وباقٍ غير زائل، وبهذا الاعتبار يوصَف بأنّه أزليّ وأبديّ، فهو بذلك موجود منذ الأزل وباقٍ إلى الأبد.

أمّا أزليّته فلأنّه ليس هناك ما يكون علّةً لوجوده وسبباً فيه، لا ذاته المقدّسة؛ لأنّ الشيء لا يكون علّةً لنفسه، ولا غيره؛ لأنّ الأشياء كلّها مخلوقات له، ولا معنى لإيجاد مخلوقات الشيء للشيء، وما لا علّة لوجوده فهو أزليّ بطبيعة الحال.

وأمّا أبديّته فلأنّه ليس هناك علّة لزواله لا من ذاته؛ لأنّ الشيء لا يكون علّةً لعدم نفسه، ولا من غيره؛ إذ الأشياء الأخرى مخلوقاته، ولا معنى لإفناء المخلوق للخالق.

وأمّا **(الجانب الثاني)** ـ وهو أنّ الله سبحانه هو فوق الزمان ـ فقد يثير الغرابة ابتداءً؛ لأنّ الشيء متى كان ذا بقاء فإنّه يكون مستمرّاً وموجوداً على طول الزمان، فكيف لا يكون له زمان أصلاً؟

والجواب عن ذلك: إنّ الزمان وفق المفهوم العامّ فيه ليس تعبيراً عن مجرّد استمرار الشيء، بل هو ظرف اعتباريّ يعبّر عن حدود الشيء من حيث مقدار امتداده وفق المتغيّرات المكانيّة، فيقطّع الامتداد إلى قطع متعدّدة وفق الحوادث المكانيّة فيتولّد منه القَرن والسنَة والشهر واليوم وغير ذلك. وهذا ليس وارداً في شأن الله سبحانه؛ إذ هو فوق المحدوديّات المكانيّة والزمانيّة.

هذا، ويتفرّد الله سبحانه بحسب النصوص الدينيّة في عدم المحدوديّة الزمانيّة، فليس هناك شيء أزليّ قديم مع الله سبحانه، وهذا موضع تأكيد الأديان الإبراهيميّة كلّها.

وكان بعض علماء الطبيعة قد ذهبوا من قبل إلى أزليّة المادّة ودوامها، بل إلى أزليّة

الوضع الكونيّ من السماوات والأرض، إلّا أنّه قد تبيّن في القرن العشرين حدوث الوضع الكونيّ من خلال كتلة أدّى انفجارها إلى تولّد المجرّات والأجرام، بل رجّح العديد من علماء الطبيعة حدوث المادّة قُبَيل هذا الانفجار، وبذلك يكون الكون المادّيّ قد وُجد من العدم، كما أوضحنا ذلك من قبل.

وكذلك ذهب بعض الفلاسفة من قبل إلى أزليّة بعض الكائنات الروحانيّة التي افترضوا وجودها لتدبير هذا الكون المادّيّ، ولكنّ هذه الافتراضات خاطئة تماماً، فليس هناك في الكون المادّيّ ما يقتضي وجود كائن روحانيّ خاصّ لتدبيره زيادةً على إحداثه وتدبيره من قِبَل الله سبحانه؛ ومن ثَمّ لا نستطيع أن نكتشف من وجود عالم المادّة إلّا كائناً أعلى يكون خالقاً له، فإن كان الخالق قد أناط أمراً ببعض خلقه فذلك ممّا لابدّ أن تدلّ عليه الأدلّة النقليّة.

التباسات طرأت بتوهّم ثبوت بعض خصائص الأجسام لله تعالى

(**الأمر الرابع**): إنّه قد يطرأ الالتباس على ما تقدّم في شأن الله سبحانه، فيُظنّ ثبوت بعض خصائص الأجسام لله تبارك وتعالى.

وذلك ينشأ عن أحد أمور ..

النصوص المعبّرة بخصائص الأجسام في شأن الله سبحانه

(**المنشأ الأوّل**): نصوص دينيّة قطعيّة تتضمّن التعبير ببعض خصائص الأجسام في شأن الله سبحانه، كقوله[1]: ﴿**يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾، وقوله تعالى[2]: ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾، وقوله عزّ وجلّ[3]: ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾، وقوله سبحانه[1]: ﴿**وَجَاءَ**

(١) سورة الفتح: ١٠.

(٢) سورة القيامة: ٢٣.

(٣) سورة الرحمن: ٢٧.

رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

وعلى أساس هذه النصوص ذهب بعض المذاهب الإسلاميّة إلى إثبات هذه المعاني في شأن الله عزَّ وجلّ، وقالوا: إنّ ثبوتها في شأن الله سبحانه ليس على نحو ثبوتها للأجسام؛ لأنّ الله سبحانه ـ بمقتضى قاعدة ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ ـ مختلف عن الأجسام، فلا يجوز أن يكون له وجه كالوجوه، ولا يد كالأيادي، ولا مجيء كالمجيء الحركيّ، ولكن يثبت له من هذه المعاني نحو يليق بذاته المقدَّسة.

والواقع أنّه ليس هناك معنىً معقول لمثل هذه الدعوى[٢]؛ لأنّ المفهوم من اليد والوجه والمجيء ونحوها بمعانيها الحقيقيّة في اللغة هي أمور مادّيّة؛ فإن لم يقصد بها ذلك في شأن الله سبحانه كانت تعابير توسّعيّة ومجازيّة. لكنّ القائلين بهذا القول ظنّوا أنّه لا يجوز المجاز على القرآن الكريم، وهذا خطأ أدبيّ واضح.

ومن ثَمّ ذهب جماعة آخرون إلى أنّ هذه النصوص ينبغي تأويلها وصرفها عن ظواهرها بالأدلّة العقليّة والشرعيّة التي تقتضي تنزيه الله سبحانه عن محدوديّات الأجسام؛ ومن ثَمّ يتعيّن حملها على التوسّع والمجاز.

---

(١) سورة الفجر: ٢٢.

(٢) لكن ينبغي الانتباه إلى أنّ هذا التأويل وإن لم يصحّ، لكنّه يصون أهله عن الالتزام بجسمانيّة الله سبحانه، فلا يصحّ الطعن في القائلين به بأنّهم ملتزمون بجسمانيّة الله تعالى، فمن التزم بأنّ له يداً لا كالأيدي فقد التزم بشيء لا محصّل له، وبالنتيجة هو لم يلتزم باليد التي تقتضي المحدوديّة المادّيّة، فلم يكن لاعتقاده محصّل، لا أنّه ممّن يجسّم الله سبحانه بهذا الاعتقاد.

والوجه في ذلك: أنّ هؤلاء إنّما اعتقدوا بأمر لا معنى له، فلا يكون ما اعتقدوه من قبيل التجسيم حقيقةً، **مثلاً**: هم اعتقدوا بيدٍ لله تعالى لا تكون محدودةً كأيادي الإنسان والحيوانات، وهذا أمر لا معنى له أصلاً، فلا يوجب الاعتقاد به التجسيم.

الفهم الصحيح للنصوص المتقدّمة

والواقع أنّ هذه النصوص هي نصوص أدبيّة وفق الفهم العربيّ في البيئة الأدبيّة التي نزل فيها القرآن الكريم، وليست ظاهرةً في إثبات هذه الخصائص فيه تعالى بحيث يحتاج إلى رفع اليد عن ظهورها بأدّلة منفصلة.

مثلاً: لم يكن أحد يتوهّم في تلك البيئة أنّ معنى ﴿**يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ أنّ لله جلَّ جلاله يد موضوعة على يد المبايعين للنبيّ ﷺ، بل كان العرب يتلقّون هذا القول تعبيراً عن أنّ هذا التعهّد مع النبيّ ﷺ هو تعهّد مع الله سبحانه.

وكذلك لم يكن قوله سبحانه: ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ يعطي ـ بحسب ذوق العرب آنذاك الذين كانوا يعيشون اللغة بالفطرة ـ أنّ لله سبحانه وجهاً، بل كان المفهوم أنّ وجه الله تعبير أدبيّ عن الوجود الإلهيّ؛ وذلك لأنّ الوجه هو واجهة الشيء، وإذا غاب وجه شخص أمام الإنسان كان دليل عدم وجوده، فالمقصود ببقاء وجه الله سبحانه وتعالى إنّما هو بقاؤه.

وكذلك القول في قوله تعالى عن المؤمنين في الآخرة: ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾، فليس هو نصّاً في رؤية الله سبحانه وفق الفهم العربيّ النابه، بل يُحتمل أن يكون التعبير بالنظر تعبيراً أدبيّاً من جهة كون المؤمن مغموراً في كرامة الله تعالى ورضوانه وقربه وضيافته، فكأنّه يكون بذلك ناظراً إلى الله تعالى، بل يتعيّن أن يكون المراد بالآية هذا المعنى بقرينة قوله سبحانه: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾.

وكذلك القول في ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾، فإن التعبير بمجيء الله سبحانه بالنظر إلى مجيء الملك الذي يمثّل الله تبارك وتعالى.

فهذه الأمور تبدو أموراً مفهومة على الإجمال بمقياس الفهم الأدبيّ في زمان نزول القرآن الكريم، ولاسيّما مع التوسّع الذي يحتمله الكلام، والتعبير في الأديان عموماً وفي

الإسلام خصوصاً عند الحديث عن العوالم الغامضة، كالعوالم الربّانيّة وعوالم الأرواح وعوالم نشأة الكون وعوالم القيامة.

عوامل الفهم الخاطئ للنصوص المتقدّمة

ولكن حدثت أمور أدّت إلى تلقّي التعابير الواردة في هذه النصوص بنحو الحقيقة، منها ..

(١). تدنّي مستوى الذوق الأدبيّ في أوساط المسلمين، وهذا تنزّل مشهود يمكن أن يلمسه الباحث المتأمّل في تاريخ اللغة العربيّة وآدابها، فقد كان العرب في عهد نزول القرآن الكريم في قمّة الأدب والبلاغة، ثمّ حصل التدنّي في الذوق الأدبيّ العامّ، ومن مظاهر هذا التدنّي إنكار المجاز لدى فريق من المسلمين.

(٢). انتشار القصص الإسرائيليّة بين المسلمين وبعض الأساطير الروائيّة التي تحتذي حذوها، وهي مشتملة على ما يقتضي التجسيم.

(٣). نشأة حركة التعمّق من قِبَل أهل العلم من المسلمين في شأن هذه النصوص القرآنيّة، فإنّ التعمّق قد يؤدّي إلى نشأة أفكار خاطئة إذا لم يملك المرء أدوات كافية للفرز بين الظواهر ومواردها.

وقد لوحظ مكرَّراً أنّ الإنسان يفهم الشيء على إجماله فهماً صحيحاً، ولكنّه إذا أراد أن يتعمّق فيه ابتُلي بالشبهة وزاغ عن الحقيقة.

مثلاً: كان السابقون من المسلمين كعامّة الناس في هذا العصر يقفون على النصوص القائلة بأن الهداية والضلال من فعل الله تبارك وتعالى من قبيل قوله سبحانه[1]: ﴿**فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾، وعلى النصوص الأخرى المفيدة لاختيار الإنسان مثل

---

(١) سورة فاطر: ٨.

قوله تعالى[١]: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، من غير أن يجدوا تناقضاً بين الطائفتين، فكان المفهوم من الطائفة الثانية أنّ الإنسان مختار في اتّجاهه الذي يختاره، كما أنّ المفهوم ممّا ورد في الطائفة الأولى من هدايته وإضلاله تعالى لمن يشاء أنّها تعبير عن سيطرة الله سبحانه على الموقف وكون كلّ شيء بإذنٍ منه، من غير أن يعني أنّ الله سبحانه ألقى الضلال في قلب الشخص وألقى الهداية في قلب الشخص بما ينفي اختيار الشخص، وبذلك كان هناك نوع من الشعور الإجماليّ في الوسط العامّ بما ورد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في هذه المسألة من قولهم[٢]: ((لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين))، فالله سبحانه مهيمن على الموقف تماماً ومع ذلك هناك اختيار للإنسان في ظلّ هذه الهيمنة لله تبارك وتعالى.

لكن بعد ذلك ابتُلي المسلمون بالتعمُّق في هذه النصوص، ولم يستطع كثير منهم من تحليل الموضوع على وجه يجمع الطائفتين، فالتزم جماعة بتفويض أمر الإنسان إليه تماماً، وذهب آخرون إلى أنّ الإنسان مجبور في أعماله، وجاء عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام الحديث المتقدم ـ الموافق لشعور عامّة الناس ـ أن: ((لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين))، فهذه الفكرة هي من السهل الممتنع.

وذلك أنّ كثيراً من هذه الأفكار الوسطى، المعتدلة، المحافظة على الجانبين، البعيدة عن الإفراط والتفريط لا يخلو إصابة الفكر الإنسانيّ لها عند التعمّق في الموضوع عن وعورة. وهناك أمثلة كثيرة لهذه الحالة في العلوم المختلفة، حيث نجد الشعور الإجماليّ العامّ بالشيء على وجه صائب، ولكن يقع الاختلاف في العلم في مقام التأمّل في الشيء،

(١) سورة الإنسان: ٣.

(٢) الكافي ج:١ ص:١٦٠. ولاحظ عيون أخبار الرضا عليه السلام ج:١ ص:١١٤.

فالحروف مثلاً أدوات لغويّة كأخواتها الأسماء، يستعملها عامّة الناس، لكن حيث أراد العلماء أن يصفوا طبيعة معانيها توصيفاً فنّيّاً يبيّن خصوصيّاتها بالمقارنة مع الأسماء اختلفوا على مذاهب متباينة ومتباعدة، وكأنّ كلّ فريق نظر إلى خصلة وصفة في معنى الحروف.

وعليه لا نعتقد أنّ الآيات المتقدّمة بحاجة إلى تأويلها وصرفها عن ظاهرها بقرائن خارجيّة، بل هي وفق الفهم الأدبيّ النابه ظاهرة في كون التعابير الواردة فيها أدبيّة.

وهذا الأمر يوافق ما نلاحظه في القرآن الكريم من مخاطبته لعامّة الناس وسعيه إلى توجيههم وهدايتهم، فهو إذاً كلامٌ وافٍ لا يعوّل على القرائن المنفصلة حيث يجعل الكلام تعميةً ولغزاً.

والحاصل: أنّ هذه النصوص الدينيّة القطعيّة ليس مفادها حسب الفهم الراشد لها إثبات خصائص الأجسام لله تعالى وإنّما عبّرت بذلك على سبيل التوسّع في التعبير على وجه غير بعيد عن الفهم العامّ.

النصوص الصريحة في تجسيم الله تعالى وبيان عدم الوثوق بها

(المنشأ الثاني): نصوص روائيّة تكاد تكون صريحةً في التجسيم؛ بحيث لا يصحّ تنزيلها على أنّها تعابير وتمثيلات أدبيّة.

ويُلاحَظ بشأن هذه النصوص أنّها على العموم ليست نصوصاً قطعيّة ويقينيّة، بل بعضها قطعاً أساطير صنعتها أذهان بعض الرواة.

ويُحتمَل في بعضها أن تكون في الأصل نصّاً صحيحاً، إلّا أنّ الراوي قد صاغها وفق ذهنيّته.

وأيّاً كان فلا حجّة فيها في مقابل المبادئ الموثوقة والراشدة التي سبق التنبيه عليها، والتي بيّنها أئمّة أهل البيت عليهم السلام وخصوصاً الإمام علي عليه السلام.

المشاعر النفسيّة الموقعة في الانطباعات الخاطئة عن الله تعالى

(**المنشأ الثالث**): مشاعر نفسيّة تحدث لبعض الأشخاص المرتاضين الذين لم يحصلوا على فهمٍ مسبقٍ واعٍ لمعطيات الأديان ولا إدراكٍ راشدٍ لمقتضيات العقل حتّى توجّههم الثوابت العقليّة والنقليّة إلى الاتّجاه السليم، فيؤدّي ذلك بهم إلى اتّجاهات خاطئة وغير ناضجة تتضمّن دعاوي تعطي حلول الذات الإلهيّة فيهم واتّحادها معهم؛ لأنّهم يتعاملون مع تلك المشاعر على أنّها صائبة ومعبّرة عن الحقيقة، فهي من قبيل الوحي والإلهام. بينما هي لا تزيد على ضربٍ من الأوهام أو العواطف والأحاسيس والتخيّلات الشعريّة، نظير ما نجده من أنّ الإنسان إذا أحسّ بمحبّة شديدة لشخص فإنّه يقول ـ مثلاً ـ: (أنت روحي)، أو (أنت قلبي)، أو (أنت نفسي).

وممّا يشجّع على الوقوع في هذا الخطأ تعارف التعابير التي تتوسّع في اندماج الخالق والمخلوق كما نجده في الأساليب التعبيريّة لقوم من المنسوبين إلى التصوّف والمعرفة بالله سبحانه.

علماً أنّ أدب الكتب الإلهيّة والأنبياء في مناجاتهم مع الله سبحانه وأدب أئمّة أهل البيت عليهم السلام في ثوابت النصوص الواردة عنهم تجاه الله سبحانه أدب لا يتضمّن على العموم شيئاً من التعابير التي تعطي الاندماج بين الخالق والمخلوق، بل يتّسم بالتصاغر أمام الله سبحانه للغاية.

فلينظر المرء إلى أدعية الإمام علي عليه السلام في النهج، وأدب حفيده الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في الصحيفة السجّاديّة، تجد أنّها تبدي عظيم التصاغر والخضوع أمام الله سبحانه، وليس في شيء منها ما يعطي معنى الاندماج؛ وإنّما تجد تلك المعاني في كلمات بعض المنسوبين إلى التصوّف كالحلّاج وفق مشاعر مضطربة يستعينون لإيجادها بكثير من الحركات التي لم يوصَ بها في الدين، مثل بعض وجوه الطواف والرقص والغناء،

فيعتقدون أنّ شعورهم بالله سبحانه يقوى في هذه الحالات حتّى يجدون الله سبحانه في أنفسهم ولا يجدون بينهم وبينه تعالى أيّ فاصل. ولكنّ هذه المشاعر ليست مشاعر موضوعيّة ولا منطقيّة، وإنّما هي تخيلات على حدِّ المشاعر الأدبيّة؛ إلا أنَّ ضعف الرشد العقليّ والثقة المفرطة بالمشاعر يؤدّي إلى الوقوع في دهاليز الأوهام.

وإنّ من المهمّ أن تكون التعابير الأدبيّة المستعمَلة في شأن العلاقة مع الله سبحانه من سنخ ما جاء في النصوص الموثوقة؛ لأنّ هذه التعابير تمثّل الانطباع عن الله سبحانه وعن نسبة الخلق إليه، فلا يصحّ أن يستبدّ بها أيّ امرئٍ على أساس مشاعره الشخصيّة.

الهلاوس الذهنيّة الموقعة في الانطباعات الخاطئة عن الله تعالى

(**المنشأ الرابع**): هلاوس ذهنيّة تتّفق أيضاً في بعض حالات الرياضات الروحيّة الشديدة في أثر ضعف في الوعي؛ فيعتقد صاحبها أنّها مكاشفات حقيقيّة، بمعنى أنّه قد انكشفت له الحقائق وباشرها دون غطاء، وتجلّى له الحقّ بالتجلّي الكامل، فتبيّن له أنّه ليس هناك في الوجود إلّا النور، فنور الله سبحانه هو المنتشر في كلّ مكان، وأمّا الأشياء الخاصّة مثل الجمادات والنباتات والحيوانات والإنسان فما هي إلّا أوهام وتخيّلات.

ومثل هذه المعاني تُعتبَر مخالفةً للبديهيّات الوجدانيّة، ولا قيمة لها بحسب الأديان بل هي من أسباب تحريفها.

وعموماً فإنّ الحقائق المتعلّقة بالله سبحانه وبالدار الآخرة وبحقائق الشريعة لا تُتلقّى وفق المنظور الدينيّ من المكاشفات كما لا تُتلقّى من المنامات، ففي كلٍّ منهما ما يصيب ويُخطئ، وهما على حدّ سواء.

وإنّ مَن أراد ترويض نفسه فإنّ عليه مراعاة جملة من الحدود المعروفة لدى علماء الدين ..

(**أوّلاً**): أنّه لابدّ أن يحذر من تحميل النفس في مقام ترويضها فوق طاقتها؛ فإنّ ذلك

يؤدّي إلى اختراق الوعي لدى الإنسان والاختلال فيه، وإذا انخرق الوعي الإنسانيّ حدث طيف واسع من الهلاوس حسب ما يدلّ عليه الاطّلاع على أحوال الناس وتؤكّده الدراسات النفسيّة في علم الطبّ النفسيّ.

(**ثانياً**): أنه لابدّ للإنسان أن يكون واعياً للأصول الثابتة والراشدة، ومنتبهاً إلى أنّ الحالات النفسيّة ذات وجهات متعدّدة، فلا تصحّ الثقة المطلقة بها، بل لا بدّ من عرضها على الثوابت العقليّة والدينيّة.

(**ثالثاً**): أنّ الحقائق الروحانيّة ـ فيما لا يفي بها العقل بشكلٍ واضح ـ لابدّ أن تُتلقّى من ثوابت النصوص الدينيّة كالقرآن الكريم والآثار القطعيّة المرويّة عن النبيّ ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، ولا تصحّ معطيات الحالات الشخصيّة حجةً في إثباتها.

استنتاج

فالحاصل ممّا ذكرناه: أنّ الله سبحانه لا يشبه خلقه في سنخ وجوده على ما يعطيه الشعور الفطريّ والعقل الراشد وواضحات النصوص القرآنيّة ومحكماتها والنصوص الواردة عن النبيّ ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، وما يخالف ذلك إنّما هو تخيّلات وأوهام ناشئة إمّا من ضعف الحسّ الأدبيّ أو الابتلاء بالشبهة في تجويز هذا النوع من المجاز في النصّ الدينيّ، وإمّا من اعتماد طرق غير موثوقة في هذا الموضوع مثل المكاشفات والمنامات والمشاعر، ولا حاجة بنا إلى التطرّق للشبهات المذكورة في كلمات بعض الفلاسفة وتوضيح وجه الالتباس فيها.

إنّ الإنسان المثقّف المسلم إذا انتبه إلى المقدار الذي ذكرناه كفاه ذلك في الإيمان بالله سبحانه، ووقاه عن الوقوع في الشبهات والمشتبهات من الأمور بعون الله سبحانه وتعالى.

البحث الثالث: في صفات الله تعالى
بالمقارنة مع صفات الكائنات الأخرى

◆ نوعان من الصفات لله سبحانه

(الأوّل): صفات ذات وكينونة.

(الثاني): صفات فعل ونشاط.

◆ خصائص صفات الله سبحانه

الأولى: أن صفات ذات الله سبحانه مثالية.

الثانية: أن صفات ذاته تعالى عين ذاته.

صفات الله تعالى

(البحث الثالث): ـ من أبحاث معرفة الإله ـ حديث عامّ في صفاته سبحانه بالمقارنة مع صفات الكائنات الأخرى.

إنّ من الضروريّ اطّلاع الإنسان في شأن الله سبحانه على صفاته حسبما يتيسّر له، ازدياداً في معرفته، وتمهيداً لمعرفة الارتباط اللائق به المطلوب بحسب الدين؛ فإنّه متى كان الإنسان محكوماً بالتعامل مع آخر كان من الحكمة والرشد أن يسعى إلى الاطّلاع على صفاته وخصائصه ليكون التعامل معه تعاملاً حكيماً وسديداً.

نوعان من الصفات لله سبحانه

إنّ لكلّ كائن فاعل نوعين من الصفات ..

(الأوّل): صفات ذات وكينونة.

(الثاني): صفات فعل ونشاط.

فالإنسان ـ مثلاً ـ له صفات ذات، بعضها فطريّة، وهي القابليّات والاستعدادات الكامنة فيه التي يولَد معها، مثل: الاستعداد للتفكير والضمير الأخلاقيّ وغير ذلك، وبعضها مكتسَبة، مثل: العلوم والقدرات التي يحصل عليها من خلال التعلّم والممارسة. وله صفات فعل، وهي النشاطات التي يقوم بها والأعمال التي يعملها، مثل: صنع الأجهزة والآلات.

كذلك لله سبحانه صفات من النوعين ..

(النوع الأوّل): صفات ذاته، من قبيل قدرته وعلمه.

(النوع الثاني): صفات فعله، كإيجاده للكون والكائنات، وكصفة الخالق التي تُطلَق

عليه بالنظر إلى إيجاده للكائنات، وتدلّ المعاني المنتزعة من أفعاله على صفات في ذاته المقدّسة، كما في صفة الحكمة والعدل ونحوها.

خصائص صفات الله سبحانه

ويمكن القول على الإجمال إنّ صفات ذات الله سبحانه تتّصف بخصيصتين ..

(الخصّيصة الأولى): إنّها صفات مثاليّة، بمعنى أنّه تعالى يتّصف بكلّ صفة كماليّة لائقة به في المرتبة العليا منها، من قبيل القدرة العظيمة، والعلم المحيط، والحكمة البالغة، والخُلُق اللائق.

وهذا المعنى يمكن إثباته من خلال المصادر الثلاثة لإثبات الصفات الإلهيّة ـ وهي الخلق، والفطرة، والرسالات الإلهيّة ـ وبيانه على الإجمال كما يأتي ..

أمّا خلق الله سبحانه فله دلالة على عظيم القدرة والعلم.

وأمّا فطرة الإنسان فقد يُرجَّح أيضاً أنّها تنزع إلى وجود كائن مثاليّ في قدراته وإمكاناته(١).

وأمّا الدين فهو أيضاً يصف الله سبحانه بكلّ ثناءٍ جميل، كما يتمثّل في أسمائه الحسنى.

هذا، وسيأتي توضيح ذلك في الحديث عن تلك الصفات تفصيلاً.

(الخصيصة الثانية): إنّ صفات ذات الله سبحانه ليست مكتسَبة، ولا هي أمور زائدة على ذاته، بل هي عين ذاته المقدّسة.

بيان ذلك: أنّ الكائنات كلّها ذات صفات ذاتيّة لا تنفكّ عنها، وأخرى مكتسبة من

---

(١) ولعلّ هذا الأمر منشأ ما ذُكر في كلمات بعض الفلاسفة من أنّ مقتضى القواعد العقليّة أنّ كلّ كمالٍ ممكن الثبوت لله تعالى فهو ثابت. فهذه القضيّة ليست مفاد برهان عقليّ واضح بل هي أشبه بشعور فطريّ، وكثيراً ما تُصاغ المشاعر أو التوقّعات الفطريّة بصيغة البرهان سعياً إلى الإقناع بها.

خلال تطوّرها وتفاعلها مع الأشياء. فالإنسان ـ مثلاً ـ يتّصف بقابليّات فُطِر عليها وبقدرات واستعدادات مكتسبة بالتعلّم والممارسة؛ ومن ثَمّ فلا يكون علم الإنسان وقدرته عين ذاته، بل هما أمران زائدان على أصل ذاته، يمكن أن توجد الذات من دونهما وتبقى مع زوالهما.

ولكنّ الله سبحانه لا يتجزّأ إلى جزئين: أحدهما أصل ذاته، والآخر قدرته وعلمه، بل ذاته بنفسها قادرةٌ وعالمة؛ لأنّه لا يتطوّر ولا يكتسب قدرةً وخبرةً وكمالاً، ومن أيّ شيء يكتسب الكمال، وهو سبحانه خالق كلّ شيء وكلّ كمال، فهو على علم سابق به وقدرة كاملة على إيجاده، وفي النصوص الدينيّة ما يؤكّد ذلك، كجملةٍ من أقوال الإمام علي عليه السلام في خطبه التوحيديّة التي أشرنا إليها.

البحث الرابع: قدرة الله سبحانه

◆ ١ـ دلالة التأمّل العقليّ على قدرته تعالى

قدرة الله تعالى على ما أوجده فعلاً.

كون قدرات الإنسان من أبعاد قدرة الله تعالى

قدرته تعالى على إيجاد ما لم يوجِده من الأمور الممكنة.

◆ ٢ ـ التباسات حول صفة القدرة

عدم تعلّق القدرة بالأمور المستحيلة

لماذا أوجد الله سبحانه الأشياء تدريجاً من خلال الأسباب؟

تفسير آخر لإيجاد الأشياء تدريجاً من خلال الأسباب

مدى منافاة عموم قدرته تعالى مع إصابة علمه

لماذا لا يمنع الله سبحانه بقدرته من وقوع الشرّ؟

قدرة الله سبحانه

(البحث الرابع): في قدرة الله سبحانه وتعالى.

لا شكّ في أصل ثبوت صفة القدرة لله سبحانه وتعالى، ولكن يقع البحث حول مدى هذه القدرة واتّساعها.

والذي تدلّ عليه النصوص الدينيّة هو أنّ الله سبحانه قادر على كلّ شيء ممكن، والمراد بالإمكان أن لا يكون الشيء المفترض مستبطناً للتناقض الداخليّ، **مثل**: (جعل الشيء موجوداً ومعدوماً في آنٍ واحد) أو (جعل الشكل الواحد مربّعاً ومثلّثاً) ونحو ذلك؛ فإنّ مثل هذه الأشياء هي مفاهيم تخيّليّة للذهن لا تصلح لأن توجد، وليس عدم القدرة على إيجادها من جهة قصور في القدرة.

ويدلّ التأمّل العقليّ الراشد على عظيم قدرته سبحانه وتعالى بما يناسب عمومها لكلّ ممكن، وقد وقع الالتباس في أمور تتعلّق بذلك.

ومن ثَمّ نبحث هنا عن أمرين ..

(١). دلالة التأمّل العقليّ على عظيم قدرة الله سبحانه.

(٢). التباسات حول صفة القدرة ورفعها.

دلالة التأمّل العقليّ على قدرته تعالى

(الأمر الأوّل): في دلالة التأمّل العقليّ على قدرة الله سبحانه.

إنّنا نبحث عن قدرتين لله سبحانه ..

(الأولى): قدرته على إيجاد ما أوجده فعلاً.

(الثانية): قدرته على إيجاد أشياء أخرى لم يوجِدها.

قدرة الله تعالى على ما أوجده فعلاً

أمّا (**القدرة الأولى**) فإنّ إثباتها لله سبحانه بديهيّ؛ إذ لولا قدرته تعالى على إيجاد الأشياء لم توجد.

وتدلّ الكائنات على عظيم قدرة الله سبحانه لما يتمثّل فيها من مظاهر الإبداع الباهر والتصميم الرائع والمقدرة العظيمة التي كلّما تأمّل فيها الإنسان لم يبلغ غورها ولم ينفذ في عمقها.

فالكون كلّه صفحات من قدرة الله سبحانه، سواء من حيث الزمان أو الحجم أو من حيث بنية الأشياء والموجودات وقوانينها ..

فالكون من حيث الأمد يُحدَّد بزمن يزيد على ثلاثة عشر بليون سنة، وهو زمن سحيقٌ وهائل.

ومن حيث الحجم يتألّف من عدد لا يُحصى من المجرّات، في كلٍّ منها ملايينٌ من النجوم، والأرض التي نعيش عليها هي قطرةٌ من بحر، حيث تقع في ذراعٍ من مجرّة درب التبّانة.

ومن حيث بنية الكون فإنّها تتألّف من الذرّات، وللذرّة بنية معقّدة جدّاً. يسعى علم الجُسيمات دون الذرّيّة ـ وهو أحد فروع الفيزياء ـ إلى كشفها والإحاطة بها، إلّا أنّه لم يتيسّر ذلك بعدُ بشكلٍ كامل ونهائيّ، بل هناك أمور تحدث في أجزاء الذرّة لم يعرف العلماء سببها إلى الآن، حتّى يئس بعضهم من وجود سبب له، وقال: إنّه يحدث من غير سبب؛ ومن ثَمّ قيل: إنّ قانون (لا يحدث الشيء من غير سبب) ينتقض في الجسيمات دون الذرّيّة. لكنّ هذا القول خاطئ، فإنّ توقف حدوث الشيء على سبب يوجبه أمر بديهيّ. ولا معنى للتفريق فيه بين حقل وحقلٍ آخر، وعدم الاطّلاع على سببٍ يتّفق في الجسيمات دون الذرّيّة لا ينفي وجود سببٍ لذلك.

وأمّا بنية الحياة فهي الخليّة، وهي ذات تكوين معقّد، حيث تعمل كمصنعٍ متكامل، ولم يزل هناك جوانب غامضة في عملها كما هو الحال في نظام الطفرة الجينيّة النافع فيها المؤدّي إلى التطوّرات الصغرى؛ ممّا يوجب تعدّد أصناف الكائنات الحيّة.

إنّ التأمّل في أحوال الكون والكائنات من علٍ والوقوف على تفاصيلها الدقيقة يكشف عن قدرةٍ هائلةٍ وعظيمةٍ للغاية لله سبحانه وتعالى.

كون قدرات الإنسان من أبعاد قدرة الله تعالى

هذا، ومن أبعاد قدرة الله سبحانه ما يتمثّل في القدرات الإنسانيّة، سواء العلميّة منها المتمثّلة في اكتشاف بنية الكون وتكوينه وقوانينه، أو الصناعيّة منها المتمثّلة في إنجازات الإنسان من الأجهزة والآلات بأنواعها.

فالاكتشافات العلميّة هي في الحقيقة اكتشاف لفعل الله سبحانه وصنائعه ووقوف على عظيم النظم والإبداع فيها.

كما أنّ المنجزات الصناعيّة للإنسان هي من جهةٍ دليلٌ على عظمة القدرات الفكريّة التي وهبها الخالق سبحانه للإنسان حتّى استطاع أن يفكّ الكثير من ألغاز هذا الكون المعقّد، فما أعجب ما انفرد به الإنسان بين الكائنات من القدرة على إدراك الكون وقوانينه وأبعاده، وإن كان ما وقف عليه بَعدُ قليلاً من كثير.

كما أنّ تلك المنجزات الإنسانيّة دليل من جهة أخرى على عظمة ما أودعه الله سبحانه في الكون من موادّ وقابليّات وخصائص؛ لأنّ الإنسان إنّما يستثمر تلك القابليّات والخصائص فيما يصنعه من الأجهزة والآلات ويمارسه من أعمال ونشاطات.

فالكون كلّه بمثابة مصنع عظيم فاعل منذ بداية وجوده، والإنسان عامل في جزء ضئيل للغاية من هذا المصنع الكبير ينتفع بما أُودع فيه من الموادّ والآلات وفق ما جُهّز به من أدوات الاطّلاع والتفكير.

فلا يزيد حدّ الإنسان في هذا الكون على هذا المقدار.

ومن الخطأ أن ينظر الإنسان إلى ما مُكّن منه حتّى كأنّه هو صانعه وخالقه وموجده، وتحجبه قدراته وإنجازاته عن تأمّل منبعها ومصدرها، بل الصواب أن يتأمّل عظمة المشهد بكامله وينتبه إلى أنّ ما استطاع من تسخيره وأوتي له الاطّلاع عليه جزء ضئيل للغاية من صفحات هذا الكون والمعلومات التي أُعملت في تكوينه، فالفهم الإنسانيّ مهما تطوّر يمثّل جزءاً ضئيلاً من علم الخالق الذي خلق الكون وفق نظام وقوانين محدّدة لا يجوزها. واستثمار الإنسان لهذه القوانين في الصنائع الرائعة يمثّل جزءاً ضئيلاً من الاستثمار المتاح لها والمهارات التي يستطيع أن يكتسبها.

إذاً الكون كلّه والحياة كلّها مظهر قدرة الله سبحانه لو وعاهما الإنسان، والإنسان لا يزال يتدرّج في معرفة أبعاد هذه القدرة المتمثّلة في هذا الكون المادّيّ، وكلّما وقف على جديدٍ شعر باتّساع المقدار المتبقّي منه الذي يُتراءى في الأفق حتّى كأنّه مفتوح على مساحات غير محدودة.

وهذا المعنى يطابق ما جاء في النصوص الدينيّة في وصف قدرة الله سبحانه، كالذي جاء حول ذلك في القرآن الكريم، حيث قال سبحانه(١): ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾، وقال تعالى(٢): ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾، وقال عزّ وجلّ(٣): ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

---

(١) سورة لقمان: ٢٧.

(٢) سورة الطلاق: ١٢.

(٣) سورة العنكبوت: ٢٠.

ومثل ذلك ما جاء في كلمات الأنبياء والأوصياء والإمام علي عليه السلام في وصف قدرة الله سبحانه.

فمن نظر إلى السماوات والأرض نظرة تأمّل ووعي شعر بعظمة ما يتمثّل فيهما من المقدرة، كما قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام[١]: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾، فالمقصود في الآية الشريفة ـ كما يبدو[٢]ـ النظر إلى السماوات والأرض بالنظرة الواعية.

إنّ دلالة الكون والكائنات على قدرته تعالى لم تنفد؛ لأنّنا لا نزال نتعلّم صنيع الله سبحانه فيما أوجده من الكائنات، ونقف على ما تنطوي عليه من المعلومات والقوانين، وكلّما تقدّمنا شعرنا بأنّ المساحة الباقية أوسع ممّا كنّا نتوقّعه، وقد ذكرنا من قبل إذعان علماء الفيزياء الكونيّة ـ كآينشتاين ـ بذلك.

هذا عن القدرة الأولى للخالق، وهي قدرته المتمثّلة فيما أوجده فعلاً.

قدرته تعالى على إيجاد ما لم يوجِده من الأمور الممكنة

وأمّا (**القدرة الثانية**) للخالق ـ وهي قدرته سبحانه على إيجاد أشياء أخرى لم يوجِدها بَعدُ ـ فهي في أصلها أمرٌ بديهيّ؛ وذلك لأنّ مَن مارس شيئاً فإنّ قدرته بطبيعة الحال لا تقتصر على ذلك الشيء، بل يدلّ على قدرته إيجاد مثله وما دونه، وكلّما تعدّد ما أوجده وكان أكثر تنوّعاً اقتضى ذلك بملاحظة حساب الاحتمالات قدرة الصانع على أشياء أكثر وأكبر؛ ومن ثَمّ لا استبعاد في أن تدلّ قدرة الله سبحانه على إيجاد الكون والكائنات بهذا التعقيد والعظمة على أنّه تعالى قادر على إيجاد كلّ شيء ممكن ـ كما دلّت

---

(١) سورة الأنعام: ٧٥.

(٢) وهناك تفسير آخر وهو أنّ المقصود النظر إلى باطن السماوات والأرض، وذلك ممّا لا يؤيّده معنى (الملكوت) في اللغة.

عليه النصوص الدينيّة ـ فقدرته سبحانه على شيء لا تتحدّد بأيّ حدٍّ.

وقد جاء في القرآن الكريم الاحتجاج بهذا الوجه على قدرته سبحانه على إعادة الإنسان في النشأة الأخرى في مقام التعليق على استبعاد الناس لها.

ويمكن تقريب عموم قدرته تعالى لكلّ أمرٍ ممكنٍ في نفسه ببيانٍ عقليٍّ قريبٍ مبنيٍّ على مقدّمتين ..

١ـ إنّ قدرة الله سبحانه على شيء ليست مرهونة بشيء إضافيّ زائد على ذاته؛ لأنّ إيجاده للأشياء إنّما هو بصرف إرادته تعالى، فهو يقول لها: كوني فتكون.

٢ـ إنّ القادر على إيجاد الشيء بمحض نفوذ إرادته من غير حاجة إلى شيء زائد على

ذاته يكون قادراً على كلّ شيء[1].

(١) توضيح هذا البيان ..

أمّا (**المقدّمة الأولى**) فبيانها: أنّ قدرة الإنسان تتوقّف على مقدّمات خارجيّة ومقدّمات داخليّة..

أما المقدّمات الخارجيّة في الإنسان فهي أربعة أنواع ..

(**الأوّل**): أشياء يستمدّ الإنسان وجوده منها كما يحتاج إلى الطعام والشراب وسائر الأشياء التي يحتاجها، والله سبحانه لا يحتاج في وجوده إلى شيء، فمن غير المعقول أن يستمدّ الله سبحانه وجوده من شيء يخلقه هو.

(**الثاني**): وجود مادّة يعمل عليها كالخشب الذي يعمل عليه النجّار، وموادّ البناء التي يعمل عليها البنّاء وغير ذلك، فنحن لا نستطيع أن نوجد شيئاً في الخارج عن عدم، ولكنّ الله سبحانه لا يتوقّف فعله على ذلك.

(**الثالث**): آلات يستمدّ منها الإنسان في فعله، فالنجّار يستعين بآلات النجارة، والصبّاغ بآلات الصباغة، والبنّاء بآلات البناء، فنحن لا نستطيع ممارسة هذه النشاطات إلّا بالآلات، والله سبحانه لا يحتاج فعله إلى موادّ أو آلات يستعين بها.

(**الرابع**): إنّ الإنسان يحتاج إلى التعلّم من الآخرين، فرُبّ شيء لا يقدر على العلم به، فلا لا يستطيع مزاولته؛ ومن ثَمّ لابدّ أن يتعلّم علوم الآخرين لأجل فعل بعض الأشياء، ومن المعلوم أنّ الله سبحانه أيضاً لا يحتاج إلى أن يتعلّم شيئاً من خلقه، وكيف يحتاج إلى شيء من مخلوقاته.

وقد يقول قائل: إنّ من المعقول أن يحتاج الفاعل إلى شيء من صنعه لإنجاز بعض أعماله، كما نجد ـ مثلاً ـ حاجة الإنسان إلى الحاسوب في إجراء عمليّات قد لا يستطيع الإنسان من إجرائها مباشرةً مع أنّ الحاسوب صنيع الإنسان.

وهذا القول غير صائب. للفرق بين الله سبحانه وبين الإنسان الصانع للحاسوب؛ وذلك لأنّ الإنسان لم يخلق موادّ الحاسوب، ولا سنّن وجود هذه الموادّ وفاعليّتها، فيمكن أن تؤدّي هذه الموادّ نشاطات لا يستطيع الإنسان من إنجازها مباشرةً.

وقد يُخرَّج على الإشارة إلى هذا المعنى قوله تعالى[١]: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾، وقوله سبحانه[٢]: ﴿**مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾.

وأيّاً كان فقد دلّت النصوص الدينيّة بشكلٍ واضحٍ على عموم قدرة الله سبحانه

وأمّا الله سبحانه فهو خالق الأشياء كلّها والمقنّن لقوانينها، فلا معنى لاحتياجه في فعله إلى شيء من مخلوقاته.

إذاً أفعال الإنسان تحتاج إلى مقدّمات خارجيّة ـ كما قلنا ـ فهو يحتاج إلى أشياء يستمدّ وجوده وقوّته منها، وأشياء ينتفع بها، وأشياء يتعلّمها من الآخرين، والله سبحانه لا يحتاج إلى شيء من ذلك.

ويحتاج الإنسان أيضاً إلى مقدّمات داخليّة كالتفكير والتأمّل، فهو كثيراً ما يحتاج لإنجاز شيءٍ إلى التأمّل في الشيء واستنباط أفكار معيَّنة، ومنشأ ذلك أنّ مبادئ سنن تعلّم الإنسان ليست موضوعةً من قِبَل نفس الإنسان؛ لأنّ الإنسان لا يملك من ذاته قابليّات التعلّم، ولكن قد وُضعت فيه مبادئ يستطيع أن يفعّلها بالتعلّم، أمّا بالنسبة إلى الله سبحانه فليس هناك حالة منتظرة فيه بالنسبة إلى علمه، لذلك جميع ما يمكن أن يعلمه الله سبحانه فإنّ علمه به فعليّ ومحقَّق من دون أن يتوقّف على محاسبةٍ وتفكير.

وكذلك الإنسان ربّما يتردّد في الشيء ويحتاج إلى العزم وترجيح كفّة على أخرى، لكنّ الله سبحانه لا يحتاج مثل هذه المقدّمات الداخليّة.

إذاً (**المقدّمة الأولى**): إنّ فعل الله سبحانه لشيء وقدرته على شيء لا يتوقّف على شيء زائد على ذاته، لا بأشياء إضافيّة ولا بمقدّمات داخليّة تجدّد في ذاته المقدّسة.

و(**المقدّمة الثانية**): إنّ قدرة الكائن على الأشياء إذا لم تتوقّف على شيء زائد على ذاته فإنّها تكون قدرةً مطلقةً بطبيعة الحال، لا يخرج عن نطاقها إلّا ما كان مستحيلاً في نفسه كالجمع بين وجود الشيء وعدمه.

وعليه نستنتج أنّ الله سبحانه وتعالى قادر على كلّ شيء ممكن، فإذا كان قد أوجد هذا الكون بنفسه دون مقدّمة إضافيّة فإنّه بطبيعة الحال قادر على إيجاد أضعافه في الحجم والدقّة والتعقيد.

(١) سورة النحل: ٤٠.

(٢) سورة لقمان: ٢٨.

لكلّ أمرٍ ممكن، وهو يبدو مناسباً مع القدرة المتمثّلة في هذا الكون.

التباسات حول صفة القدرة

(الأمر الثاني): في التباسات حول صفة القدرة ورفعها، ونوردها ضمن عدد من الأسئلة ..

عدم تعلّق القدرة بالأمور المستحيلة

(السؤال الأوّل): هو أنّه لو كانت قدرة الله سبحانه عامّةً وشاملةً لكلّ شيء لاستطاع أن يجمع بين وجود الشيء وعدمه، أو يجمع الأمور المتضادّة كأن يوجِد شيئاً يكون أبيض وأسود في آنٍ واحد، أو أن يعدم الله سبحانه نفسه؟

وهذا المعنى قد أُثير في الأوساط الكلاميّة منذ القرن الثاني الهجريّ أو قبله من خلال بعض الأمثلة، **مثل**: هل يستطيع الله سبحانه أن يجعل العالَمَ في بيضة؟ وربّما يتكرّر مثله في بعض الأوساط كالمجادلات الفكريّة المعاصرة.

والجواب عن هذا السؤال: إنّ الأشياء المتناقضة والمتضادّة هي أمور مستحيلة يتخيّلها الإنسان؛ ومن ثَمّ فلا تتناولها القدرة، وليس في ذلك ما يدلّ على قصورٍ في القدرة واتّصافٍ بالعجز.

والشاهد على ذلك أنّنا لو أجبنا السائل بالإيجاب وإثبات قدرته تعالى على ذلك لم يقبل ذلك وعدّه محالاً، ومعنى ذلك أنّه يذعن أنّ هذا أمر لا يمكن أن تتناوله القدرة حتّى لو كان الكائن الفاعل مطلق القدرة.

وقد ورد الجواب عن هذه الشبهة عن الأئمّة من آل البيت عليهم السلام أنّ الذي ذُكر لا

يكون، ولكنّ الله عزّ وجلّ قادر على كلّ شيء[1].

إذاً من الطبيعيّ أن لا تتناول القدرة ـ وإن فرضناها مطلقةً ـ الأمور المتهافتة مثل: إيجاد (الأبيض الأسود) و(الطويل القصير) و(المربّع المثلّث) ونحوها.

وهذا ينطبق على مثال (إفناء الخالق لنفسه)؛ لأنّ وجود الخالق لم يحدث عن سبب محدث له، فلا يكون قابلاً للعدم، فلا تتناوله القدرة وإن كانت مطلقة.

لماذا أوجد الله سبحانه الأشياء تدريجاً من خلال الأسباب؟

(**السؤال الثاني**): إنّه إذا كان الله سبحانه قادراً على كلّ شيء، فلماذا خلق الأشياء على نظام الأسباب والمسبّبات، فجعل لكلّ شيءٍ سبباً يوجبه ويؤدّي إليه، كما هو مشهود في عالم المادّة، كما أنّه أوجد الكون والكائنات من خلال مراحل متعدّدة، فأوجد الكون ـ وفق ترجيح العلم الحديث ـ من خلال الانفجار في كتلةٍ مادّيّةٍ مكثّفة تفرّقت أجزاؤها وكوّنت الغبار الكونيّ حتّى تجمّعت هذه الأجزاء في كتل فتكوّنت النجوم، وأوجد الكائنات الحيّة ضمن مسيرةٍ من التطوّر والتكامل، حيث يبدأ وجود الكائن الحيّ جنيناً ثمّ يتكامل ويولَد، وهكذا الحال في جميع الأشياء، فلماذا لم يوجِد هذه الأشياء دفعةً واحدة؟

والجواب عن ذلك: إنّ اختيار خلق الأشياء ضمن نظام الأسباب والمسبّبات لا دلالة فيه على قصورٍ في قدرته تعالى.

بل يمكن القول إنّه أكثر دلالةً على القدرة، فشتّان بين أن يحمل الإنسان شيئاً بنفسه

---

(١) ففي التوحيد للصدوق ص:١٣٠ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: هل يقدر ربّك أن يُدخِل الدنيا في بيضة من غير أن يصغّر الدنيا أو يكبّر البيضة؟ قال: إنّ الله تبارك وتعالى لا يُنسَب إلى العجز، والذي سألتني لا يكون)). وفي الكافي ج:١ ص:٧٩، ح:٤ والتوحيد ص:١٢٢ أنّ عبد الله الديصانيّ ـ وهو من الملحدين ـ سأل هشام بن الحكم ـ وهو من مشاهير متكلّمي الشيعة في عصره ـ عن هذه المسألة. وفي (التوحيد ص:١٣٠) أنّ رجلاً سأل الرضا عليه السلام عنها أيضاً.

أو يقطّعه أو يحرّكه بنظمٍ خاصّ، وبين أن يستطيع أن يخلق آلةً قادرةً على حمل هذا الشيء أو تقطيعه أو تحريكه على النظم المطلوب.

لقد كان البشر من قبل ينجزون كثيراً من النشاطات بأعمال يدويّة، وقد استطاعوا أخيراً بالنهضة العلميّة الحديثة أن ينجزوها من خلال آلات دقيقة، فدلّ ذلك على قدرةٍ فكريّةٍ كبيرة.

إنّ علماء الطبيعة لَيجدون عمق المقدرة الإلهيّة في إيجاد الكون بالطريقة المذكورة في ضوء معادلات رياضيّة بالغة التعقيد، وكذلك الحال في خلق أنواع الكائنات على نظم وقوانين منسَّقة للغاية.

وقد نبّه القرآن الكريم على روعة هذا النظم، حيث يجعل الله سبحانه أشياءً مبدأً لأشياءٍ أخرى من خلال التطوّر والتكامل، فيجعل من الغبار الكونيّ ـ المعبَّر عنه في القرآن الكريم بالدخان ـ سماواتٍ وأرضاً، ويجعل من النطفة علقةً ثمّ مضغةً ثمّ جنيناً، ويجعل من البذرة شجرةً، ويُخرج الحيّ من الميّت.

ولو أنّ الله سبحانه أراد إيجاد الكون والكائنات خلقاً من بعد خلق ـ من دون أسباب ومسبّبات ـ اقتضى ذلك أن لا يكون لدينا أيّ فاعل غير إلهيّ، فيكون الموجود فقط موادّ وكائنات غير فاعلة، يحافظ الله سبحانه على وجودها بنحوٍ إعجازيٍّ من غير أيّ نشاطٍ وفاعليّةٍ لها، فتوجد الأشياء من الجمادات والنباتات والحيوانات والإنسان على وضع محدّد ما لم يتصرّف الله سبحانه في تحويلها إلى وضع آخر، فأين ذلك عن الوضع الفعليّ لها الذي يجعل الأشياء كلّها من مكوّنات الذرّة إلى الخليّة إلى المجرّات والنجوم دائماً في حالٍ من الفعل والانفعال وفق أنظمةٍ محدَّدة.

إذاً ليس من الصحيح أن يفهم المرء من إيجاد الله سبحانه الكون والكائنات بهذه الطريقة أنّه لم يكن قادراً على إيجادها بنحوٍ مباشر.

وكيف يصحّ هذا الفهم، مع أنّ الله سبحانه قد أوجد أصل الكون من العدم، كما جاء في الدين وتؤيّده معطيات علم الكونيّات، ولا شكّ أنّ إيجاد شيء من العدم ليس من قبيل إيجاد الأشياء من خلال الأسباب؛ إذ العدم لا يصلح سبباً للوجود.

تفسير آخر لإيجاد الأشياء تدريجاً من خلال الأسباب

هذا، وقد فسّر فريق من الفلاسفة إيجاد الأشياء من خلال الوسائط على أساس أنّ هذا ما تفرضه طبيعة الأمر، من جهة أنّ الله سبحانه وإن كان السبب لجميع الأشياء، إلّا أنّ الأشياء المادّيّة لا تستطيع أن تستقبل الوجود والعطاء الإلهيّ من جهة نقصانٍ في قابليّتها، فلابدّ في وجودها من إيجاده سبحانه لوسائط يكون مستواها دون الخالق وفوق هذه الأشياء لتوجد الأشياء من خلال تلك الوسائط؛ ومن ثَمّ بنى فريقٌ منهم على أنّ الله سبحانه إنّما أوجد أوّلاً كائناً روحانيّاً عظيماً، ثمّ من خلاله أوجد الأشياء على مراتب ودرجات متسلسلة.

ولكنّ هذا الوجه غير موثوق من وجوه، منها ..

(١). إن الله تبارك وتعالى ـ وفق ما جاء في الدين وتؤكّده الفطرة ـ فاعل مختار، بمعنى أنّه إنّما تصدر منه الأشياء عن إرادةٍ واختيار، وليس سبحانه من قبيل الفاعل الطبيعيّ كالشمس.

وليس هناك أيُّ مأخذٍ عقليٍّ على أنّ الفاعل المختار إذا كان ذا وجودٍ راقٍ لم يَجُزْ تأثيره في إيجاد شيءٍ في مستوياتٍ متدنّية جدّاً.

نعم، لو كانت فاعليّة الإله على حدّ فاعليّة الأسباب الطبيعيّة ـ كما يُذكر عن فلاسفة اليونان ـ أمكن القول إنّ الفاعل الطبيعيّ إنّما يوجِد أثراً محدّداً يناسبه ويؤدّي إلى حصول أمور أخرى من خلال تسلسل الأسباب والمسبّبات الطبيعيّة.

(٢). إنّ مقتضى ما جاء به الدين أنّ الله سبحانه قادر على إيجاد الأشياء مباشرةً،

وإنّما جعل إليها أسباباً للنظم الذي اختاره للوجود والحياة.

وقد تكرّر في الآيات القرآنيّة أنّه سبحانه متى أراد شيئاً قال له: كُن فيكون.

كما جاء في القرآن الكريم بعدَ وعد المؤمنين بنصرتهم من خلال الملائكة[١]: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾، ومفاد الآية ـ والله أعلم ـ أنّ النصر هو من عند الله تعالى على كلّ حال، ولكن أناطه بالملائكة لاطمئنان قلوب المؤمنين، حيث اقتضت عزّته وحكمته إيجاد هذه الأشياء بتوسّط أسبابٍ سنّها.

وتدلّ النصوص الدينيّة على أنّ بعض خوارق الأنبياء لم تكن من جهة إعمال قدرة روحانيّة خاصّة من قِبَلهم، بل كان بفعل الله سبحانه، فقد جاء عن إبراهيم عليه السلام أنّه سأل الله سبحانه أن يريه كيف يحيي الموتى ليطمئنّ قلبه، فقال له تعالى[٢]: ﴿**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾، ومن الواضح أنّ إبراهيم عليه السلام لم يكن فاعلاً فيما حدث من إحياء هذه الطيور، كيف! وهو لم يعلم كيف يُحيي الله تعالى الموتى.

وجاء عن موسى عليه السلام[٣]: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ**﴾، ومن الواضح من سياق الآية أنّه لم يكن صيرورة العصا حيّةً بقدرةٍ روحانيّةٍ من موسى عليه السلام.

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٣) سورة طه: ١٧ـ٢١.

وجاء عن عيسى بن مريم عليه السلام أنّه قال[١]: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

فالحاصل: أنّ النصوص الدينيّة[٢] تتضمّن أنّ الله سبحانه سنّ أمور الكائنات على نظم وأسباب حتّى الروحانيّة منها كالملائكة، إلّا أنّ ذلك ليس لعدم إمكان إيجادها إلّا من خلال هذه الطريقة، بل اختار تعالى ترتيب إيجادها على هذا النظام.

إذاً ما اعتقده بعض الفلاسفة من أنّ طبيعة الموجودات المادّيّة ومستواها تفرض إيجادها من قِبَل الله سبحانه من خلال وسائط أمر غير موثوق، وربّما نشأ عن مناشئ غير سليمة ..

(منها): التأثّر بأفكار فلاسفة اليونان في افتراض فعل الخالق للكون من قبيل فعل الفواعل الطبيعيّة.

و**(منها)**: تنزيل الواقع الموجود على أنّه الحالة الممكنة بحسب العقل حصراً، فليس في الإمكان إلّا الذي وُجد وكان.

هذا، وقد ذكرنا مراراً أنّ العقل إذا فكّر في شيءٍ لا يملك أدواتٍ لاستطلاع واقعه ربّما وقع في الأوهام والأخطاء الفاحشة وذهب بعيداً عن الواقع، والاعتقاد المتقدّم لبعض الفلاسفة قد يكون من هذا القبيل.

---

(١) سورة المائدة: ١١٤ـ١١٥.

(٢) وتعطي طائفة من هذه النصوص تشبيه حال الله سبحانه مع الكائنات تشبيهاً أدبيّاً بالمَلِك الذي يجلس على الكرسيّ ويكون له قوم يأتمرون بأمره وينجزون رغباته، فكأنّ هذا العالم بأسره هو عرش الله سبحانه وتكون العوامل الروحانيّة والطبيعيّة جنوده وعمّاله.

مدى منافاة عموم قدرته تعالى مع إصابة علمه

(السؤال الثالث): إنّ عموم قدرته تعالى ينافي إصابة علمه؛ وذلك لأنّ الله سبحانه عالم بما سوف يقع مستقبلاً، وهذا يوجب تعذّر إيقاع خلافه منه تعالى، وإلّا لم يكن علمه مصيباً.

والجواب: إنّ العلم بالمستقبل لا يحدّد القدرة؛ لأنّ شأن العلم هو الكشف والاطّلاع وليس التحكّم، كما أنّنا قد نعلم بما سوف نعمله غداً من جهة العزم عليه، لكنّ ذلك لا يحدّ من قدرتنا واختيارنا غداً في أن نفعل ما عزمنا عليه أو نتركه، وهذا واضح[١].

لماذا لا يمنع الله سبحانه بقدرته من وقوع الشرّ؟

(السؤال الرابع): إنّه إذا كان الله سبحانه قادراً على كلّ شيء فلماذا لا يحول دون وقوع الشرّ والمعاناة في الحياة، فلِمَ لا يمنع الشيطان من الإيحاءات السلبيّة إلى الإنسان، ولماذا لا يغني الفقراء ولا يشفي المرضى، ولا ينقذ المظلومين، ولا يحول دون وقوع الزلازل والفيضانات، إلى غير ذلك.

والجواب عن هذا السؤال سيأتي في بحث العدل؛ فإنّ السؤال ألصق به منه بالقدرة.

فالمتحصّل من هذا البحث: أنّ الله سبحانه قادرٌ على كلّ شيءٍ ممكن.

---

(١) ولبعض الفلاسفة كلامٌ في هذا الشأن ليس صحيحاً. ولا يسع هذا البحث ذكره والتعليق عليه، كما تركنا مثل ذلك غالباً.

البحث الخامس: علم الله سبحانه

◈ أمور يجب إيضاحها

١ـ أدلّة ثبوت العلم لله سبحانه

٢ ـ علم الله تبارك وتعالى على ضروب ثلاثة

٣ـ التباسات في كيفيّة علمه تعالى

علم الله سبحانه

(**البحث الخامس**): ـ من مباحث معرفة الإله ـ في علم الله سبحانه.

إنّ من جملة صفات الله سبحانه الكماليّة علمه تعالى بالأشياء، فهو سبحانه يعلم بالأشياء الموجودة قبل وجودها ويشهدها عند تحقّقها ويحيط بالعلاقة بين الأشياء حتّى وإن لم تتحقّق خارجاً.

أمور يجب إيضاحها

وينبغي هنا إيضاح أمور ..

١ ـ ثبوت العلم لله سبحانه وأدلّته.

٢ ـ ضروب علم الله سبحانه.

٣ ـ التباسات في شأن صفة العلم.

أدلّة ثبوت العلم لله سبحانه

(**الأمر الأوّل**): في إثبات علم الله سبحانه؛ وذلك ممّا تدل عليه المنابع الثلاثة المتقدّمة في تحديد صفاته سبحانه ..

(**الأوّل**): **الكائنات،** فصُنع الله سبحانه للكائنات تقتضي علمه بها وبخصائصها وتقلّباتها وأطوارها؛ فإنّ كلّ كائنٍ هو كتلةٌ مجسّمةٌ من المعلومات المترابطة كما يراه العلم الحديث. ولم يزل العلم يسعى إلى اكتشاف مزيدٍ من المعلومات التي أُعملت في إيجاد الكون والكائنات والاطّلاع على السنن الكونيّة.

والواقع أنّ ما يتمثّل في الكائنات من معلومات كمٌّ هائلٌ وعظيم، ولا يزال علماء الكونيّات والفيزياء يبدون إعجابهم لما يتمثّل في هذا الكون من المعلومات المذهلة

والرائعة.

وحقّاً ما جاء في القرآن الكريم[١]: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

(**الثاني**): **الفطرة**، حيث إنّ فطرة الإنسان تُشْعِره أو تهديه إلى وجود كائن أعلى متّصف بالكمال، عالم بالأمور كلّها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها؛ ومن ثَمّ كان هذا هو الانطباع الشائع للأقوام في شأن ما يعبدونه من الآلهة، وإن وُجد بعض ما يخالفه عند بعضهم.

(**الثالث**): **الرسالات الإلهيّة**؛ فإنّها تؤكّد علم الله سبحانه بكلّ شيءٍ كما جاء في القرآن الكريم[٢]: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾، وقوله سبحانه[٣]: ﴿**أَلَا إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾، وقوله تعالى[٤]: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

ومن الآيات في ذلك قوله سبحانه[٥]: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾.

---

(١) سورة لقمان: ٢٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٩.

(٣) سورة النور: ٦٤.

(٤) سورة الحديد: ٣.

(٥) سورة الأنعام: ٥٩.

علم الله تبارك وتعالى على ضروب ثلاثة

(**الأمر الثاني**): في ضروب علم الله سبحانه وتعالى، وهي ثلاثة ..

(**الأوّل**): العلم بالأشياء قبل إيجادها، ولا شكّ في ثبوت هذا العلم لله سبحانه الذي هو الصانع لجميع الأشياء؛ لأنّ الأشياء ـ كما قلنا ـ هي مجموعة من المعلومات المترابطة متمثّلةً في شيءٍ عينيّ، فلا يمكن إيجادها من غير الاطّلاع على تلك المعلومات.

وقد ورد في النصوص الدينيّة إخبار الله سبحانه وتعالى بحوادث مستقبليّة، حتّى وإن كانت ممّا تقع باختيار الإنسان.

(**الثاني**): العلم بالأشياء عند وقوعها، بمعنى الاطّلاع المباشر عليها.

وهذا الاطّلاع يحصل للإنسان من خلال الإحساس السمعيّ والبصريّ. ولكنّ الاطّلاع من خلال الإحساس غير معقول في حقّ الله سبحانه؛ لأنّ الإحساس البصريّ والسمعيّ من شؤون الأجسام، ولا معنى لذلك في شأنه تعالى.

إلّا أنّه لا شكّ في ثبوت هذا العلم لله سبحانه للأدلّة المتقدّمة ..

أمّا **دليل الكائنات** فلأنّ جملةً من الكائنات الحيّة مَن يحصل له هذا العلم كالإنسان، ولولا أنّ الله سبحانه واقف على الأشياء لم يتأتّ له أن يخلق ما يكون كذلك، على أنّ من غير المعقول أن يخلق الله سبحانه الكائنات ثمّ لا يشهدها بعد إيجادها.

وأمّا **دليل الفطرة** فلأنّ الفطرة الإنسانيّة تشهد على إحاطة الإله ـ الذي تشعر به ـ بالكون وما يقع فيه، فالعلم صفةٌ كماليّةٌ أساسيّة، ليس من الوارد بحسب الفطرة افتقاد الخالق لمثلها.

وأمّا **دليل الرسالات** فذلك من الواضحات فيها؛ ومن ثَمّ وُصف سبحانه في

النصوص الدينيّة بأنّه سميعٌ بصير، قال سبحانه[١]: ﴿**أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ**﴾، وقال تعالى[٢]: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ**﴾، فالأشياء كلّها في محضر الله سبحانه.

(**الثالث**): العلم بأمور لم تقع، من قبيل الملازمات بين الأشياء، مثل علمه تعالى بأنّه لو وُجد كذا لوقع كذا، وهذا العلم شرطٌ ضروريٌّ في ممارسة الاختيار الراشد والحكيم؛ فإنّ الحكمة تتقوّم بالاطّلاع على الخيارات المتعدّدة ومعرفة خصائصها وآثارها ومضاعفاتها. **وعليه** فيدلّ على ثبوت هذا العلم له تعالى ما دلّ على حكمته سبحانه من الأدلّة الثلاثة ـ كما سنذكره في البحث اللاحق ـ.

هذا، ومن أعظم مصاديق علم الله سبحانه وتعالى هو علمه بالقوانين التي سُنّ عليها الكون والكائنات ـ من القواعد الفيزيائيّة والكيميائيّة والأحيائيّة والنفسيّة ـ وهذه القوانين هي التي تم اكتشاف جانب منها في العلوم المعاصرة فأذهل العلماء وأثار إعجابهم، وأدّى استثمارها إلى الإنجازات الصناعيّة المشهودة، ولم يزل يبحث العلماء للاطّلاع على باقيها، وهم يجدون أمامهم أفقاً مفتوحاً لا يبدو له نهاية واضحة.

فهذه القوانين تدلّ على أنّ الخالق لهذا الكون مهندسٌ ورياضيّ[٣] خبير جدّاً، كما مرّ ذكر أقوال كبار علماء الطبيعة المعاصرين في شأن ذلك في الحديث عن حجّة النظم الكونيّ من حجج وجود الإله.

التباسات في كيفيّة علمه تعالى

(**الأمر الثالث**): إنّ اتّصاف الخالق سبحانه بالعلم وإن كان في أصله أمراً واضحاً،

(١) سورة العلق: ١٤.

(٢) سورة المجادلة: ٧.

(٣) التعبير بمثل ذلك توسّع.

إلّا أنّ في كيفيّة هذا العلم غموض وتعقيد[1]، أدّى إلى طرح أفكار غير سليمة فيه من بعض المدارس الفلسفيّة.

والواقع أنّ غموض كيفيّة علمه وإحاطته تعالى بالأشياء لا يصحّ أن يُجعل ـ بحسب المنطق ـ وجهاً لنفيه أو الترديد فيه؛ لأنّنا لا نحيط بذاته المقدّسة وخصائصها تفصيلاً. فهذه الجهة كسائر التفاصيل المجهولة لنا حول ذاته من جهة قصور أدواتنا المعرفيّة عن الإيفاء بمعرفتها.

وقد ذكرنا من قبل أنّه لا يصحّ توغّل الإنسان فيما لا يملك أدوات معرفيّة كافية فيه؛ لأنّه لا يؤدّي إلى مزيد من المعرفة بالضرورة، بل قد يوقع الإنسان في الخطأ، وهذه نكتة معرفيّة عامّة.

وفيما يتعلّق بموضوع (علم الله) سبحانه فإنّه لا شكّ في أنّ خلق الكون والكائنات يكشف عن علمٍ سابقٍ وإحاطةٍ عظيمة، فلا ضير في عدم إمكان معرفة كيفيّة هذا العلم به، ومجرّد وجود عقدةٍ فكريّةٍ فيه لا يؤدّي إلى نفيه أو الترديد فيه؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يجعل من كلّ عقدةٍ في أمرٍ ما ـ مهما كان وجوده واضحاً ـ دليلاً راشداً ومقبولاً لنفي ذلك الأمر أو الترديد فيه، كما هو واضح لأهل العلم بالممارسة.

---

(١) ومن الوجه في التعقيد أنّ العلم بالشيء قبل حدوثه أو بعد زواله إنّما يكون في الإنسان من خلال صورة ذهنيّة، ووجود الله سبحانه ليس محلّاً لصور الأشياء، كما أنّ العلم الاستحضاريّ بالشيء عند وجوده يتوقّف على حضوره لدى العالم، ولكنّ الله سبحانه ليس محلّاً للحوادث حتّى يحصل له علم عند حدوث الأشياء ويزول بانعدامها.

البحث السادس: اختياريّة أفعال الله سبحانه

- انقسام الفاعل إلى فاعلٍ قهريٍّ وفاعلٍ مختار
- كون الإنسان من قبيل الفاعل المختار
- الله سبحانه فاعلٌ عن علمٍ وإرادة
- كون الله تعالى فاعلاً مختاراً
- ما يوهم عدم اختياريّة أفعال الله سبحانه

اختياريّة أفعال الله سبحانه

(**البحث السادس**): في اختياريّة أفعال الله سبحانه وتعالى.

انقسام الفاعل إلى فاعلٍ قهريٍّ وفاعلٍ مختار

إنّنا نشهد خارجاً انقسام الفاعل إلى قسمين ..

١ـ **الفاعل القهريّ**، وهو الفاعل الذي لا يستطيع التحكّم في صدور الفعل منه وعدمه بل ينساق إلى الفعل لا محالة، ومن أمثلته الفاعل الطبيعيّ الذي يعمل من دون علم أو اختيار، مثل العوامل الكيميائيّة والفيزيائيّة المؤثّرة في آثار مناسبة لها.

٢ـ **الفاعل المختار**، وحقيقة الاختيار هو أنّ الفاعل إن شاء فعل هذا الفعل وإن شاء تركه، **بمعنى** أنّ المبادئ الموجودة في مقام ذات الفاعل لا تكفي في حصول الفعل منه، بل لابدّ في صدوره من مبادرةٍ إضافيّةٍ منه.

كون الإنسان من قبيل الفاعل المختار

ومثال الفاعل المختار هو الإنسان وفق انطباع عامّة العقلاء؛ فإنّ العوامل الجاهزة الموجودة في الإنسان من خلال الوراثة والبيئة لا تتحكّم على الإنسان تحكّماً تامّاً؛ بحيث ينزلق الإنسان إلى الفعل قهراً بل يبقى للإنسان الخيار في عمله، وهذا هو الموجب للحكم العقلائيّ بتحميل الشخص مسؤوليّة عمله واتّصافه بالحسن والقبح، فالإنسان عند عامّة العقلاء فاعلٌ مختار.

نعم، قد يتّفق أن ينزلق الإنسان في بعض الحالات إلى فعل بغير اختيار فيرمي الشيء من يده مثلاً في حال شدّة الانفعال والغضب، ولكنّ تلك حالات خاصّة، وليست عامّة أفعال الإنسان كذلك.

وهناك من يذهب إلى أنّ الإنسان يتأثّر بالعوامل الجاهزة من غرائزه ومن البيئة المؤثّرة فيه بشكلٍ قهريٍّ لا يتخلّف، فهو يتزحلق منذ نشأته من حالٍ إلى حال. **وعليه** فهو وإن كان يفعل ما يفعله عن علمٍ وقصد، ولكنّ هذا القصد والإقدام بدوره مسبّب عن عوامل جاهزة بشكل قهريّ، فلا يكون للإنسان حقيقة الاختيار؛ لأنّ حقيقة الاختيار ليست مجرّد صدور الفعل عن علمٍ وإرادة، بل لابدّ فيها من القدرة على التحكّم في أيّ اتّجاه.

وعلى هذا القول فإن الإنسان ـ بالرغم من كونه فاعلاً عالماً ومريداً ـ مثالٌ للفاعل القهريّ على حدِّ العامل الطبيعي.

إلّا أنّ هذا القول غير صائب جدّاً؛ فإنّه كما ذكرنا مخالف للإدراك الوجدانيّ للإنسان الذي يجده جميع العقلاء؛ فإنّ الإنسان يرى نفسه مختاراً؛ ومن ثَمّ يتحمّل مسؤوليّة عمله، وتتّصف أعماله بالقبح والحسن.

وقد يحتجّ بعضهم على نفي الاختيار عن الإنسان ببيانات فنّيّة يعتبرها براهين على ذلك، ولكنّها لا تعدو أن تكون شبهةً في مقابل البديهة، ولا حاجة إلى التعرّض لها والقول فيها.

هذ ما يتعلّق بتوضيح انقسام الفاعل إلى قهريّ ومختار.

الله سبحانه فاعلٌ عن علمٍ وإرادة

وعليه يقع الكلام في شأن الله سبحانه، وهنا سؤالان ..

السؤال الأوّل: في أنّ أفعال الله سبحانه هل هي من قبيل فعل الفاعل القهريّ الطبيعيّ كالشمس مثلاً؟

والجواب عن هذا السؤال هو النفي القاطع؛ وذلك لأنّ الفاعل القهريّ لا علم له بفعله، ولا شكّ في أنّ الله سبحانه إنّما أوجد ما أوجد عن علم وتدبير وليس مثله مثل

الشمس في الإشراق، كما تفي بذلك الأدلّة الثلاثة القائمة على وجوده سبحانه ..

فـ(**الأوّل**): دليل الفطرة، ولا شكّ أنّ الإنسان مفطورٌ على التوجّه إلى إلهٍ عالم يستجيب لسؤال الإنسان ودعائه وثنائه، ولم يعبد الإنسان في التاريخ إلهاً لا يتّصف ـ بحسب تقديره ـ بالعلم والتدبير[1].

و(**الثاني**): دليل الخلق، وهو أيضاً يفي بإثبات علم الله سبحانه وتدبيره في أفعاله، لما تقدّم بيانه من أنّ التأمّل في أحوال الكائنات يعطي أنّها إنّما وُجدت عن تخطيطٍ وعقلانيّةٍ وتدبير.

و(**الثالث**): دليل الرسالات، وهي أيضاً مصرّحة بأنّ الله سبحانه ذاتٌ عالمةٌ تصدر أفعاله منه عن علمٍ وإرادةٍ وتدبير.

فإله الأديان الذي يخاطب الإنسان ذاتٌ عالمةٌ ومريدة، وليس على حدّ الأسباب الطبيعيّة.

كون الله تعالى فاعلاً مختاراً

السؤال الثاني: أنّ فعله تعالى هل يجري بمقتضى ذاته أم بإرادةٍ وإقدامٍ واختيارٍ منه، بحيث إن شاء تركه وإن شاء فعله.

وهنا أيضاً لا ينبغي الشكّ في أنّه سبحانه فاعلٌ مختارٌ بحسب الأدلّة الثلاثة على وجوده تعالى ..

أمّا **دليل الفطرة** فلأنّ ما يجده الإنسان من نفسه وجرى عليه في طول التاريخ إنّما هو

---

(١) وقد يُستثنى من ذلك بعض ما كانوا يعبدونه على سبيل التقليد، حيث قد يظهر من بعض النصوص أنّهم لم يكونوا يعتقدون بنفعه أو ضرره، كما قال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ (سورة الشعراء: ٦٩ ـ ٧٤)، فتأمّل.

التوجّه إلى إلهٍ مختارٍ فعّالٍ لما يشاء، غير محكومٍ باتّجاهٍ معيَّنٍ لا يستطيع تجاوزه.

يُضاف إلى ذلك: أنّ الاختيار هو صفة كمالٍ في الفاعل العاقل، بأن يكون فعله بإرادةٍ منه ولا يكون منساقاً إليه قهراً، وقد تقدّم أنّ الشعور الفطريّ تجاه الله سبحانه يشتمل على أنّه كائنٌ مثاليٌّ متّصفٌ بصفات الكمال.

وأمّا **دليل الخلق** فيدلّ على اختياره تعالى من وجهين ..

(الوجه الأوّل): إنّ هذا الكون لم يكن ثمّ كان، فهو خَلقٌ حادث، ولولا أنّ فعله تعالى أمر اختياريّ له لم يكن حادثاً ..

أمّا **المقدّمة الأولى** ـ وهي حدوث الكون ـ فهو من جهة ما ترجّح في العلم من حدوثه بالانفجار الكبير كما سبق بيانه.

وأمّا **المقدّمة الثانية** ـ وهي أنّ حدوث الأثر يدلّ على اختيار الفاعل ـ فلأنّ الكون إذا كان أثراً قهريّاً لذات الخالق كان المفروض أن يكون موجوداً معه في الأزل؛ إذ ليس زمانٌ أولى من زمانٍ آخر بإيجاده فيه، وهو تعالى بذاته مقتضٍ لوجود الكون، فلا يجوز أن يتأخّر وجود الكون عن وجوده تبارك وتعالى.

(الوجه الثاني): إنّ من جملة الكائنات التي خلقها الله تعالى كائناً مجهَّزاً بقدرة التحكّم والاختيار، وهو الإنسان. وهذا يقتضي أن يكون الخالق نفسه واجداً لهذه الصفة؛ فإنّه لو كان فاقداً للاختيار لم يكن في مخلوقاته مَن يتّصف بهذه الصفة الرائعة التي تميّز بها الإنسان مِن بين الكائنات المادّيّة كلّها.

وأمّا **دليل الرسالات الإلهيّة** فلأنّ الذي تدلّ عليه النصوص الدينيّة كون الإله فاعلاً مختاراً، إن شاء فعل وإن شاء ترك، ولا ينساق بنحوٍ قهريٍّ إلى شيءٍ معيَّن، فإن فعل شيئاً فليس بإيجابٍ فيه ينشأ من ذاته بل بحكمته وعدله، وإن ترك شيئاً فهو ليس من جهة تعذّره عليه، بل بمقتضى دواعيه الحكيمة والعادلة؛ ومن ثَمّ تجد إثبات المشيئة لله سبحانه بشكلٍ

متكرّرٍ ودائمٍ في القرآن الكريم.

ما يوهم عدم اختياريّة أفعال الله سبحانه

نعم، هنا أمران قد يوهمان عدم اختياريّة أفعاله تعالى ..

(**أحدهما**): إنّ أمور الكون والكائنات كلّها تجري على نسقٍ واطّراد، وهذا يعطي أنّ السبب فيها أمرٌ متعيّن في نفسه، ولا يخضع لمزاج فاعلٍ مختار.

والجواب عن ذلك: إنّ هذا التناسق والانتظام إنّما ينشأ عن حكمة الخالق، فهي اقتضت خلق الأشياء عن سننٍ وقواعد منتظمة، فلا تختلف فيها الأمثال، كما سيأتي توضيح ذلك.

و(**ثانيهما**): إنّ إسناد أفعال الله سبحانه إلى حكمته وعدله ينفي كونه فاعلاً مختاراً بحقيقة الاختيار؛ لأنّ هذه الحكمة والعدل إنّما هما من مقتضيات ذاته.

وعليه فتستند الأفعال الحكيمة والعادلة إلى ذات الباري، فلا يجوز أن تنفكّ عنه بحالٍ، لاستحالة عدم صدورها منه. وعلى هذا لا تكون هذه الأفعال اختياريّةً بحقيقة الاختيار؛ لأنّ ما استند إلى ذات الفاعل لا يكون له خيارٌ آخر متاح له حتّى يكون مختاراً.

والجواب عن ذلك يظهر بالتأمّل في حال الإنسان؛ فإنّه كائنٌ مختارٌ بلا إشكال، وهذا الاختيار محفوظٌ فيه حتّى في حال قوّة الدواعي أو الصوارف في نفسه؛ ومن ثَمّ يُمدح أو يُذمّ عليه، **مثلاً**: من الناس مَن لا يجوز عليه بعض الأفعال الوضيعة والقبيحة من جهة فضيلته وحكمته، ولكنّ هذا لا ينفي اختياره في ترك هذه الأفعال، وإلّا لم يُحمَد على تركه لها، وهذا أمرٌ بديهيٌّ عند العقلاء.

ومن ذلك يُعلَم أنّ الانطلاق من الحكمة والفضيلة لا ينفي صفة الاختيار عن الفاعل؛ لأنّ الحكمة والفضيلة لا تزيد على الدواعي إلى الفعل أو الترك ولا تسلب قدرة الفاعل على مخالفتها.

وبذلك يظهر القول في الخالق أيضاً، فامتناع فعلٍ عليه من منطلق حكمته وعدله لا ينفي كون ترك هذا الفعل أمراً اختياريّاً له.

إذاً لا ينبغي الشكّ في أنّه تعالى فاعلٌ مختارٌ كما ورد ذلك في جميع الأديان السماوية، فما يصدر منه سبحانه إنّما يصدر عنه باختياره لا على أساس إيجابٍ قهريٍّ من ذاته، وما ذهبت إليه بعض الآراء الفلسفيّة من أنّه تعالى فاعلٌ موجَبٌ ليس صحيحاً.

البحث السابع: في أن فعل الله سبحانه حادث

- ◆ الأديان الإلهية تصرح بأن الكون حادث غير قديم
- ◆ علم الكونيات الحديث يؤيد بأن الكون حادث
- ◆ دلالة العقل على أن المخلوق حادث لاسيما إن أُوجد اختياراً
- ◆ إشكالات عقليّة على حدوث الكون ونقدها

فعل الله سبحانه حادث

(**البحث السابع**): في أنّ فعل الله سبحانه حادث، بمعنى أنّ الكون والكائنات كلّها أمور حادثة، وليست قديمةً مرافقةً للذات الإلهيّة في الأزل.

لقد كان المشهور بين الفلاسفة اليونانيّين أنّ العالم المادّيّ أمرٌ قديمٌ بوضعه القائم، حتّى وإن كان قد وُجد من قِبَل الإله، فهو معه في الأزل.

وقالوا: إنّ قِدَمَ الشيء لا يستلزم استغناؤه عن الفاعل؛ لأنّ مناط استغناء الشيء عن الفاعل هو سنخ وجوده.

فإن الوجود منه ما هو مستغنٍ بذاته كوجود الإله، ومنه ما يتّكل على إيجاد الغير له كوجود سائر الأشياء. فسنخ وجود الكائنات غير الإله هو وجودٌ متوقّفٌ على إيجاده من قِبَل فاعل.

وكان علماء الطبيعة ـ من غير الأديان ـ عموماً على هذا الرأي، وهو قِدَم المادّة والكون، ويُعبَّر عن ذلك بـ(نظريّة الحالة الثابتة).

الأديان الإلهية تصرح بأن الكون حادث غير قديم

هذا، ولكن دلّت الأديان الإلهيّة ـ من خلال التوراة والإنجيل والقرآن الكريم ـ على أنّ السماوات والأرض حادثةٌ غير قديمة، بل لا شيء قديم مع الله سبحانه في الأزل، فكلّها أمور محدثة.

علم الكونيات الحديث يؤيد بأن الكون حادث

وأيّد علم الكونيّات الحديث ذلك، على أساس ما تبيّن من أنّ الوضع الكونيّ القائم يعتمد على حدثٍ فيزيائيٍّ هائلٍ أدّى إلى انفجار المادّة المكثّفة الأولى وتباعد أجزائها، ثمّ

اجتمعت مجاميع منها فكوّنت الأجرام، ولا يزال أثر هذا الحدث قائماً ومانعاً من توحّدها بفعل الجاذبيّة فيها، ومن المعلوم أنّ هذا الانفجار أمرٌ حادثٌ وليس قديماً؛ لأنّه حدثٌ معيَّنٌ، وليس كائناً حتّى يحتمل أن يكون أزليّاً، بل يستطيع العلم توقّع زمان حدوثه بحسابات رياضيّة من خلال ملاحظة مستوى القوى الباقية الناتجة من الانفجار، وقد قالوا: إنّه حدث منذ نحو ثلاثة عشر بليون سنة.

وأمّا الكتلة التي حدث فيها الانفجار فهي تُقدَّر حادثةٌ عادةً؛ لأنّ هذه الكتلة يُقدَّر وجودها تمهيداً لحدوث الانفجار وحدوث الترتيب الكونيّ، والانفجار إن كان حدثاً خارقاً بفعل الإله فتكون الكتلة حادثةً قبيل الانفجار وإن كان حدثاً طبيعيّاً فهو إنّما يتوقّف على فعلٍ وانفعالاتٍ محدودةٍ لا أزليّة؛ لأنّ الحادث المادّيّ بطبيعته لا يتوقّف على نشاطات أزليّة.

دلالة العقل على أن المخلوق حادث لاسيما إن أُوجد اختياراً

هذا، وقد أثبت فريقٌ من متكلّمي المسلمين حدوث الكون على أساس قضاء العقل بذلك، من جهة أنّ العقل يرى أنّ الشيء متى كان مسبَّباً عن فاعلٍ يوجده فإنّه يكون حادثاً لا محالة؛ لأنّ قِدَم الشيء يقتضي غناه واستغناءه عن السبب.

وقد يرى بعض آخر أنّ هذا المعنى يصحّ ويتّضح في فعل الفاعل المختار؛ لأنّ الفعل الاختياريّ ليس لازماً لذات الفاعل، بل يتوقّف على إرادته، وإرادة الفاعل ليست جزءاً من ذاته؛ وإنّما هي ممارسةٌ منه، وذلك يقتضي حدوث فعله، فلا معنى لكون فعل الفاعل المختار مرافقاً لذاته كما يمكن أن يُفرَض ذلك في الأسباب الطبيعيّة.

ويتّضح من خلال ذلك: أنّ هناك شواهد ثلاثة لحدوث الكائنات ..

(١). شاهد الرسالات الإلهيّة التي تؤكّد على حدوث ما سوى الله سبحانه، وخلْقه للسماوات والأرض.

(**٢**). شاهد العلم الحديث الذي تُرجِّح معطياته حدوث الكون والكائنات.

(**٣**). شاهد العقل الذي يدلّ على أنّ كلّ شيءٍ مخلوق فهو حادث لاسيّما إذا كان أثراً قد أُوجد اختياراً[١].

إشكالات عقليّة على حدوث الكون ونقدها

وهناك من يحتجّ على قِدَم الكون بوجوه عقليّةً غير سليمة، منها وجهان ..

(**الوجه الأوّل**): إنّ إحداث الكون في وقتٍ محدّدٍ دون ما قبله أو بعده يبدو أمراً اعتباطيّاً بعيداً عن حكمة البارئ.

والجواب عن ذلك ..

(**أوّلاً**): أنّه إذا كان العلم يساعد على حدوث الكون ـ على ما تقدّم بيانه ـ يكون الاستناد إلى البيان المتقدّم أشبه باصطناع الشبهة في أمرٍ واقع.

(**ثانياً**): أنّ إثبات قِدَم الكون على أساس أنّه يوافق حكمة البارئ لا يبدو حجّةً مقنعةً وموجبةً للوثوق، لصعوبة إثبات وجود شيءٍ على أساس محض موافقته للحكمة؛ لأنّنا وإن كنّا نعلم أصل حكمة الخالق إلّا أنّنا لا نحيط باقتضاءاتها.

(**ثالثاً**): أنّ ما ذُكر يبتني على تجويز أن يكون الكون مخلوقاً وقديماً في آنٍ واحد؛ إذ لو كان ذلك أمراً غير معقولٍ ـ كما نقلناه آنفاً ـ فيكون الكون مخلوقاً في وقتٍ محدَّدٍ بطبيعة الحال، ولا ضير في اختيار هذا الوقت أو ذاك.

(**الوجه الثاني**): إنّ الله سبحانه خلق الكون تفضُّلاً وكرماً على الكائنات، فلو كان الكون حادثاً فمعناه أنّه سبحانه أمسك عن الكرم في فترة ما قبل خلقه، وهو غير مناسب.

---

(١) هناك مزيد من البحث حول هذا الحكم العقليّ، ليس من المهمّ عرضه هنا بعد وجود الشواهد الأخرى.

والجواب: أنّ الاحتجاج بجود الله سبحانه وكرمه في إثبات وجود شيءٍ أو عدمه احتجاجٌ واهن؛ لأنّ الله سبحانه وإن كان جواداً وكريماً ـ كما سيأتي بيانه في بحثٍ مقبل ـ لكن لا يستطيع الإنسان أن يجزم بأنّ هذا الموضع أو ذاك موردٌ لكرمه الذي يصدر منه لا محالة، ومن المعلوم أنّه لا يصدر منه سبحانه كلّ ما يراه الإنسان كرماً وجوداً.

على ضوء ذلك يتبيّن أنّ فعل الله سبحانه في إيجاد الكون حادث.

البحث الثامن: في دوام فعله تعالى في إيجاد الكائنات

- ◆ هذه المسألة ليست قضية عقلية واضحة عند العقل
- ◆ تبني بعض فلاسفة المسلمين مبدأ أن المسبب كما يحتاج إلى السبب حدوثاً يحتاجه بقاءً
- ◆ دلالة النصوص الدينية على حاجة الموجودات إلى الخالق حدوثاً وبقاءً
- ◆ عدم نفي العلوم الطبيعية الحديثة حاجة الموجودات إلى المدد من الخالق

دوام فعله تعالى في إيجاد الكائنات

(البحث الثامن): في أنّ فعله تعالى في إيجاد الكائنات مستمرٌّ ودائم، بمعنى أنّ الكائنات تستمدّ من الله سبحانه في بقائها كما في أصل وجودها، فهي باقيةٌ بحفظه ومدده، كما هي حادثةٌ بإيجاده.

قد يُتصوَّر بدواً أنّ الله سبحانه قد خلق الكون والكائنات على سنن وقوانين تجري عليه بلا حاجةٍ إلى مددٍ إلهيٍّ دائمٍ ومتجدّد. **وعليه** فليس هناك حاجة إلى فعل الله سبحانه في إبقائها كما كان هناك حاجة إلى فعله تعالى في حدوثها.

هذه المسألة ليست قضية عقلية واضحة عند العقل

ولكنّ الواقع أنّ هذه المسألة ليست قضيّةً عقليّةً واضحةً عند العقل، بالنظر إلى أنّ الأشياء تختلف في هذا الأمر، فهناك أشياء يمكن أن توجد ويستمرّ وجودها، وهناك أشياء يمكن أن توجد ولكن تحتاج إلى فاعلها حدوثاً وبقاءً، ونحن لا نعلم طبيعة العلاقة بين أصل وجود الشيء وبين الفاعل؛ لأنّنا لا نمارس إيجاد شيء من أصله؛ وإنّما نوجِد تغييراً فيما هو موجود، ولذا قيل في بعض العلوم الحديثة: إنّ المادّة لا تحدث ولا تفنى، فعلاقة الشيء بالخالق له عن العدم هي علاقةٌ منحصرةٌ للأشياء بالله سبحانه، ومن المحتمل بدواً أن تكون هذه العلاقة علاقةً تقتضي دوام المدد في بقاء الأشياء، كما يجوز استغناؤها في بقائها عن الفاعل.

تبني بعض فلاسفة المسلمين مبدأ أن المسبب كما يحتاج إلى السبب حدوثاً يحتاجه بقاءً

وقد ذهب بعض فلاسفة المسلمين إلى أنّ هذه العلاقة بطبيعتها تقتضي دوام المدد؛ لأنّ المسبَّب يحتاج عقلاً إلى سببٍ يبقيه كما يحتاج إلى سببٍ يحدثه. **وعليه** فإنّ وجود المادّة

بالقياس إلى الله تعالى أشبه بنسبة الطاقة الكهربائيّة إلى منبعها، حيث إنّها تحتاج إلى مدده آناً فآناً.

دلالة النصوص الدينية على حاجة الموجودات إلى الخالق حدوثاً وبقاءً

هذا، وقد دلّت النصوص الدينيّة على الحاجة الدائمة للأشياء إليه سبحانه لأجل إمدادها وبقائها، كما قال تعالى[١]: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ**﴾.

وقد أُسندت عامّة الحوادث التي تقع في الوجود والكون في كثير من الآيات إلى الله سبحانه، كما أُسند في بعضها الآخر إلى الفواعل الطبيعيّة والمختارة، كما أُسندت الضلالة والهدى مثلاً إلى الله سبحانه طوراً وإلى أصحابها طوراً آخر، وهو ما يعبّر عن الدور المهيمن للإله على كلّ فاعليّة في الكون.

وعبّر في آيات أخرى بتوقّف كلّ شيء على إذنه تعالى، كما قال سبحانه عن معاجز المسيح عليه السلام[٣]: ﴿**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ**﴾، وقال تعالى[٤]: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**﴾، وقال عزّ من قائل[٥]:

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٢) سورة فاطر: ٤١.

(٣) سورة آل عمران: ٤٩.

(٤) سورة آل عمران: ١٤٥.

(٥) سورة آل عمران: ١٦٦.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ﴾، وقال جلّت آلاؤه[١]: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وقال تعالى[٣]: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾، وقال عزّ من قائل[٤]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، وقال جلّت آلاؤه[٥]: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

عدم نفي العلوم الطبيعية الحديثة حاجة الموجودات إلى المدد من الخالق

هذا ولا تنفي العلوم الطبيعيّة الحديثة حاجة الأشياء كلّها في بقائها إلى المدد من الله سبحانه؛ لأنّ ذلك خارجٌ من عهدتها، فهي إنّما تدرك وجود المادّة وانتظام عملها، ولا تستطيع أن تنفي أو تثبت مدى حاجتها إلى مددٍ دائمٍ من قِبَل الخالق.

وقد يغري انتظام الكون الإنسان باعتقاد أنّه مكتفٍ ذاتيّاً ولا حاجة إلى فعلٍ من الخالق في إبقائه وحفظه.

ولكن لا ملازمة بين الانتظام وبين الاستغناء عن فاعلٍ يُقِيم هذا النظام، بل يجوز أن تكون وراء هذا النظم إرادةٌ منظّمة، كما نجد أنّ أمور الدولة تجري على نظمٍ وسياق،

---

(١) سورة الأعراف: ٥٨.

(٢) سورة الأنفال: ٦٦.

(٣) سورة يونس: ١٠٠.

(٤) سورة الرعد: ٣٨ـ٣٩.

(٥) سورة التغابن: ١١.

ولكنّ ذلك مديون للتخطيط والعمل على استمرار النظم والنظام من خلال إرادات عديدة ومنسّقة، إلّا أنّ مَن ينظر إلى هذا العمل المنظَّم من الخارج قد يشعر أنّه أمرٌ طبيعيٌّ لا حاجة به إلى رعايةٍ خاصّة، ولكنّ الواقع ليس كذلك.

والحال في شأن الكون كذلك، فانتظام أمر الكون يمكن أن يكون من جهة إرادةٍ منظِّمةٍ له وهو إرادته سبحانه، فلولا حمايته تعالى لهذه القوانين لم تستمرّ.

فلا ينبغي أن يعتقد الإنسان بأنّ بقاء هذا المصنع الكونيّ بموادّه وفعّاليّاته ونشاطاته حالة تلقائيّة لمجرّد أنّه لا يرى العقل المدبّر والمنظِّم للمصنع.

وعلى الإجمال إنّ انتظام الكون على سنن وأسباب لا ينفي أن يكون ما يتّفق فيه فعلاً اختياريّاً للإله الصانع، فالحال في ذلك ـ على سبيل التقريب ـ يشبه حال الرئيس الذي يدير الدولة وفق السنن الاجتماعيّة ولكن ليس معنى ذلك أنّه ليس هناك فعل اختياريّ لهذا الرئيس. وهكذا الحال في كلّ فاعلٍ مختارٍ في هذا الكون إلى السنن التي ينتفع بها، فكما أنّ الإنسان المختار يعتمد في كلّ ما يفعله على السنن النفسيّة والاجتماعيّة والطبيعيّة بأنواعها من غير أن ينفي ذلك كونه مختاراً، فكذلك الحال في شأن الله تعالى، إلّا أنّ تحكّمه سبحانه بالوجود كلّه تحكّم عميق ومباشر، لاستمداد كلّ شيء منه في وجوده وبقائه.

إذاً من الخطأ ما ذكره بعض علماء الطبيعة المعاصرين من أنّه لا حاجة في قيام هذا الكون المادّيّ وبقائه وفاعليّته إلى الله سبحانه؛ إذ لا يسع العلوم الطبيعيّة أن تحدّد طبيعة العلاقة بين العلّة المفيضة للوجود وبين هذا الوجود المفاض، فمن الجائز أن يكون ذلك بدوام الفيض والمدد من الفاعل، كما دلّت النصوص الدينيّة.

البحث التاسع: في حكمة الله سبحانه في فعله

- تناسق أفعاله سبحانه وانتظامها
- عدم انتقاض نظم الكون بالحوادث المدمّرة
- تدّخل الإله في عالم المادّة لا ينافي نظم هذا العالم
- وجود غايةٍ لله سبحانه في أفعاله
- غايته تعالى بحسب الدين
- وجود الغاية لله سبحانه لا تقتضي حاجةً له

حكمة الله سبحانه في فعله

(البحث التاسع): في أنّ الله سبحانه حكيمٌ في فعله، ذو غايةٍ مناسبةٍ له في أفعاله، كما أنّ أفعاله منسَّقةٌ ومنتظمةٌ تجري على مثالٍ واحد.

تفترض جملة من الأديان والعقائد غير التوحيديّة أنّ الآلهة ذات طبيعة مزاجيّة لا تنتظم تحكّماتها ولا تتعلّل تصرّفاتها، فهي أشبه ما تكون بالإنسان المزاجيّ الذي يتصرّف كما يشاء من غير نظرٍ إلى غايةٍ واحدةٍ، ولا التزام نظمٍ واتّساق.

ولكنّ الأديان الإلهيّة التوحيديّة جعلت الحكمة من أصول الصفات الإلهيّة، فهي تثبت له سبحانه المشيئة التامّة والمقدرة الكاملة على كلّ شيء، ولكن مع ذلك تثبت له حكمةً لا يحيد عنها وسنناً مطّردة لأفعاله، لا انتقاض لها ولا تبديل فيها(١).

وكان من مظاهر حكمته دعوتُه الإنسان إلى العمل الحكيم حتّى جعل الحكمة من غايات إرسال الرسل وبثّها بين الناس من جملة وظائف الأنبياء وواجباتهم، فكانت الشرائع تمثيلاً لمقتضيات الحكمة في شأن الإنسان حسب السنن التي خُلق عليها.

إنّ مضمون هذه الدعوة إلى رعاية الإنسان للحكمة هو إرشادٌ إلى أنّ هناك سنناً فاعلةً في شأن الإنسان، منها ما يؤدّي إلى السعادة، ومنها ما يؤدّي إلى الشقاء في هذه الحياة وما بعدها، فمَن انتبه إلى هذه السنن واستثمرها كان سعيداً، ومن أعرض عن العمل وفق هديها لقي عناءً وشقاءً، فالحياة الإنسانيّة ليست حالةً لاهية، بل هي منظّمة وفق نظامٍ صارم، فمن عرف هذا النظام وعمل على وفقه انتفع بذلك، ومن أعرض عنه وعمل على

---

(١) وقد ورد توصيف الله سبحانه بوصف (الحكيم) معرَّفاً ومنكَّراً عقيب ذكر أفعال وتشريعات له سبحانه في ما يقرب من (١٤٠) موضعاً في القرآن الكريم.

نحوٍ عشوائيٍّ خسر خسراناً كثيراً.

قال تعالى[١]: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وقال عزّ من قائل[٣]: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

ويعبَّر عن السنن الفاعلة في الاتّجاه الصائب بالصراط المستقيم، كما قال تعالى[٤]: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقال سبحانه[٥]: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقال عزّ وجلّ[٦]: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقال تعالى[٧]: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وقال سبحانه[٨]: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

هذا، ومقتضى حكمته تعالى في فعله أمران ..

---

(١) سورة البقرة: ٢٣١.

(٢) سورة البقرة: ٢٦٩.

(٣) سورة الجمعة: ٢.

(٤) سورة الفاتحة: ٦.

(٥) سورة آل عمران: ١٠١.

(٦) سورة الملك: ٢٢.

(٧) سورة الزخرف: ٦٤.

(٨) سورة الأنعام: ١٥٣.

تناسق أفعاله سبحانه وانتظامها

(الأمر الأوّل): تناسق أفعاله وانتظامها واطّرادها، وليس هناك تبعيض بين الأمثال ولا تفريق بين النظائر، فما يجري على شيءٍ يجري على أمثاله، وما يمتنع على شيءٍ يمتنع على نظائره؛ ومن ثَمّ كان الوجود والكون مقنَّناً، فما قوانين الكون إلّا نظم أفعال الله سبحانه، حتّى أدّى هذا الانتظام إلى اعتقاد بعض علماء الطبيعة الغربيّين أنّ الكون قائم بنفسه، مستقلٌّ في وجوده عن الله سبحانه، وليس ذلك إلّا لأنّ العمل المنظَّم يُخفى دور فاعله، حتّى كأنّه يجري على هذا المنوال لذاته.

والوجه في اقتضاء الحكمة للانتظام والتقنين ظاهر؛ لأنّ الانتظام يمثّل العقلانيّة واتّساق الدواعي؛ ومن ثَمّ تجد أنّ العقلاء يصفون من تتّسق أفعاله وتتناسب مواقفه بالحكمة، ويصفون من تتفاوت سلوكيّاته بحسب أحواله بعدم الحكمة والمزاجيّة في السلوك والتصرّفات.

وتفي المنابع الثلاثة لصفات الله سبحانه وهي الفطرة والخلق والرسالات الإلهيّة بإثبات هذا النحو من الانتظام ..

أمّا الفطرة فلأنّ الانتظام والتقنين صفة كمال ـ كونه من مقتضيات الحكمة ـ وقد مرّ أنّ الشعور الفطريّ للإنسان أنّ الإله كائنٌ مثاليٌّ واجدٌ لصفات الكمال.

وأمّا الخلق فهو يتمثّل في نظام الأسباب والمسبّبات التي يبتني عليها الكون ويتبيّن من خلال العلوم الطبيعيّة.

لقد ذكرنا من قبل أنّ علماء الطبيعة ـ خاصّةً الفيزياء ـ يجدون أنّ الكون يجري على قوانين رياضيّة عميقة منسّقة ومطّردة لا تخلّف لها، حتّى ذكروا أنّ النظم الكونيّ المبنيّ على نظام الجاذبيّة بعينه هو النظم الذي يجري عليه تكوين الذرّة.

هذا، وقد اعتقد بعض علماء الطبيعة[1] أنّ الاعتقاد بمبدأ ثبات الطبيعة أحد أركان العلم، والمراد به أنّ ما حدث اليوم سيحدث غداً. فهذا المبدأ هو أساس تقدير الحوادث الفلكيّة كالكسوف ونحوه.

وأمّا الرسالات الإلهيّة فهي كما ذكرنا تؤكّد النظم الصارم والضبط الدقيق في الخلق، وذلك بألسنةٍ مختلفة ..

(منها): ما جاء بلسان تسبيح الأشياء لله سبحانه وسجودها له ومطاوعتها لأمره، وهو تعبيرٌ عن استجابتها لما سنّه عليها، قال تعالى[2]: ﴿**يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾، وقال سبحانه[3]: ﴿**وَلِلهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**﴾.

وقد يرد هنا سؤالان ..

(الأوّل): إنّ النظم المذكور ينتقض بما نجده من الحوادث المدمّرة، مثل: الأمراض والزلازل والفيضانات.

عدم انتقاض نظم الكون بالحوادث المدمّرة

والجواب: إنّ ما يحدث في عالم الطبيعة من الحوادث المذكورة ليست تخلّفاً في عمل تلك القوانين، بل يتخرّج على تلك القوانين أنفسها، كما هو معروف في العلوم الطبيعيّة.

نعم، هنا حديثٌ آخر في شأن هذه الحوادث، وهو مبرّر خلق الكون على نحوٍ

---

(١) يقول بول دافيز: (إنّ شروق الشمس كلّ يومٍ من أيّام حياتك لا يضمن أنّها ستشرق غداً. والاعتقاد بأنّها ستشرق، أي بأنّ هناك نوعاً من الانتظام في الطبيعة يمكن التعويل عليه، هو فعلٌ إيمانيّ، ولكن لا غنى عنه لتقدّم العلم). نقله في: العلم ووجود الله، لجون لينوكس ص:١٠٧.

(٢) سورة الجمعة: ١.

(٣) سورة الرعد: ١٥.

يوجب وقوع هذه الحوادث المريرة. وهذه الزاوية يأتي الحديث عنها في بحث العدل.

(**الثاني**): إنّ ما يثبته الدين من استجابة الله سبحانه لدعاء الناس ووقوع الخوارق للأنبياء وغيرهم لا يجري وفق نظامٍ معيَّن؛ لأنّه مرهونٌ باعتباراتٍ غير منضبطة.

يُضاف إلى ذلك: أنّ ما يتّفق بهذه الأسباب يُعدّ خرقاً للنظم الموصوف للكون المادّيّ، فكيف يمكن أن ينسجم البناء على ذلك مع القبول بالنظم الصارم للقوانين الكونيّة.

تدّخل الإله في عالم المادّة لا ينافي نظم هذا العالم

والجواب عن ذلك ..

(**أوّلاً**): أنّ التأثيرات الصادرة من الإله أيضاً لها قواعد وقوانين مطّردة تجري عليها، فإذا كان الله سبحانه يستجيب لدعاء هذا المريض في شفائه فإنّه يستجيب لكلّ ما يماثله في العناصر التي تقتضي الاستجابة، وإذا كان سبحانه يستجيب لطلب أقوام الأنبياء للخوارق فهو أمر لا يتخلّف في الحالات المماثلة، فلا عشوائيّة في ما يتّفق بالأسباب الروحانيّة.

و(**ثانياً**): أنّ ما ذُكر من انتقاض نظم السنن والعوامل المادّيّة بافتراض تدخّل عوامل غير مادية في عالم الطبيعة ليس صحيحاً؛ لأنّ من الجائز مبدئيّاً أن يكون هناك منافذ للتأثير في عالم الطبيعة يدخل فيها العوامل الروحانيّة؛ لأنّ العلوم الطبيعيّة لا تحيط بكنه المادّة وإنّما تعرفها بخواصّ وآثارٍ لها، وأيّ استبعادٍ في أن يكون للخالق الذي أوجد المادّة عن العدم منفذ للتأثير في عالم المادّة، ولاسيّما مع الانتباه إلى ما تقدّم من احتياج الكائنات كلّها في بقائها إلى مددٍ دائم.

وجود غايةٍ لله سبحانه في أفعاله

(**الأمر الثاني**): ـ ممّا تقتضيه حكمته تعالى ـ إنّ هناك غاية لله في أفعاله مناسبة مع مقام قدرته وعظمته، فهو سبحانه لم يخلق ما خلقه لاهياً ولا عابثاً، بل خلق هذا الخلق

المادّيّ وما وراءه من الخلق الروحانيّ لغايةٍ حكيمة.

وقد تناول علماء الطبيعة البحث في (غاية الكون المادّيّ)، حيث لاحظوا أنّ الأمور في الكون تبدو مرتَّبةً في اتّجاهٍ معيَّنٍ ـ حسبما يظهر بالتأمّل في الوقائع الكونيّة والنظم الكونيّ القائم من حيث الثوابت التي تعتمد عليها ـ ولكن ما هو هذا الاتّجاه الذي يسير إليه الكون؟

لقد لفت نظر العلماء وجود الإنسان ـ الذي يستطيع أن يفهم قوانين الكون ـ من بين الكائنات وتوقّع عدد من العلماء أن يكون انتهاء الكون إلى وجود الإنسان ـ المتميّز بفهم تلك القوانين ـ أمراً منظوراً.

ويمكن القول: إنّ الغاية المنظورة للإله سبحانه ينبغي أن تكون مناسبةً مع خلقه ومتمثّلةً فيهم بنحوٍ ما. وإذا لاحظنا خلق الله تعالى وجدنا أنّه خلقٌ رائعٌ يتمثّل فيه عظيم قدرته وعلمه وإبداعه، وجعل فيهم كائناتٍ عاقلةً ذوات ضمائر يمكن لهم أن يفهموه بعقولهم ويشكروه بضمائرهم.

فالمناسب مع هذا الخلق أن تكون غاية الله سبحانه هو أن يكون له مخاطَبون عقلاء، مجهَّزون بالضمائر، يريهم عظيم قدرته وعلمه وإبداعه، فيقدّرون له إنعامه وإكرامه بخلقه لهم وإفضاله عليهم.

ويمكن أن يقرّب الإنسان ذلك إلى ذهنه بعض الشيء بملاحظة حال أهل العلم والفنّ والصناعة، حيث إنّ طبيعتهم أن يسعوا إلى أن يجدوا لأنفسهم مخاطَبين عقلاء يفهمونهم ويقدّرون قدراتهم، أو بملاحظة حال الوالدين اللذَين يسعيان إلى أن يكون لهم أولاد ينعمون عليهم ويستأنسون بهم، هذا مع الفرق الشاسع بين هذه الأمثلة وبين الله سبحانه وتعالى.

وعليه يُتوقَّع أن تكون غايته تعالى من الخلق أحد أمرين: إمّا التعريف بنفسه

وقدراته للعقلاء من خلقه. وإمّا الإحسان إلى الذوات العاقلة بعد خلقه إيّاهم.

غايته تعالى بحسب الدين

ويلاحَظ أنّ النصوص الدينيّة تؤكد على ..

(أوّلاً): أصل وجود غايةٍ للخلق، كما قال تعالى[١]: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾.

(ثانياً): أنّ الغاية من الخلق كلّه هي العقلاء من خلقه، فهو خلَق خلقاً روحانيّين عقلاء وهم الملائكة، وخلق خلقاً ذا بُعدٍ مادّيٍّ وهو الإنسان، وخلَق لأجله العالم المادّيّ وسخّره له، كما جاء في قصّة خلق آدم أنّه خلقه من جهة علمه بالأسماء دون الملائكة ـ وكأنّه إشارةٌ إلى أسماء الأشياء المادّيّة ـ وسخّر له سبحانه سائر الكائنات المادّيّة، كما قال تعالى[٢]: ﴿**خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾.

(ثالثاً): أنّه تعالى يرغب في أن يتعامل معه العقلاء من خلقه من خلال الوجدان الأخلاقيّ الذي أودعه فيهم، فيوقّرونه ويجلّونه ويراعون مقتضيات الأدب معه، كما قال سبحانه[٣]: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾، ويكونون محلًّا لرحمته وإنعامه، كما قال تعالى[٤]: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾.

(رابعاً): أنّ الغاية الأقصى للكون المادّيّ هي أن تكون هذه الحياة مضماراً معرفيّاً

---

(١) سورة الدخان: ٣٨ـ٣٩.

(٢) سورة البقرة: ٢٩.

(٣) سورة الذاريات: ٥٦.

(٤) سورة هود: ١١٨ـ١١٩.

وسلوكيّاً للإنسان ليلقى كلٌّ ما سعى إليه وعمله، كما قال تعالى[1]: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾.

وتفسّر هذه الغاية الكون المادّيّ تفسيراً كاملاً، حيث يبدو أنّ خلق السماوات إنّما هو لنشأةٍ أخرى يكون فيها كلّ هذا الكون موضعاً للإنسان، فيجد الخيّرون منهم فيه السعادة والراحة، والأشرار فيه العناء والشقاء؛ ومن ثَمّ اعُتبر وجود هذه الغاية هو الذي يُخرج خلق السماوات والأرض عن كونه أمراً لاهياً ولعباً.

إذاً تكون الغاية من الكون المادّيّ أن ينتهي إلى خلق الكائن العاقل، وهو الإنسان الذي يمكن أن يستدلّ على وجود الله سبحانه ويكشف قوانين الكون وينتفع بها، ثمّ الغاية من خلقه اختبار إرادته الحرّة ليسير على مسار الرشد أو الغيّ فيحلّ كلّ امرئٍ محلّه ويُجازى بعمله.

وجود الغاية لله سبحانه لا تقتضي حاجةً له

وقد يرد هنا سؤال، وهو أنّ وجود الغاية للفاعل يعني احتياج الفاعل إلى الغاية واستكماله بها، فكيف يجامع ثبوت الغاية لله سبحانه مع كماله التامّ واستغنائه الكامل عن الأشياء كلّها.

والجواب عن ذلك: إنّ وجود الغاية للفعل من مقتضيات الحكمة فيه، وليس من مقتضيات الاحتياج والاستكمال بالغاية لزوماً.

وهذا أمر نجده في شأن الإنسان في حالات التضحية، فالذي يضحّي بنفسه لأجل الآخرين فيحتضن (الانتحاريّ) الذي يريد أن يفجّر نفسه بين الناس لأجل سلامة الناس لا يفكّر في استكماله بهذا العمل، ولكن يبعثه على ذلك غايةٌ نبيلةٌ هي وقاية الناس عن

---

(١) سورة الملك: ٣٨ـ٣٩.

الأذى الظالم، ولو كانت غاية المرء أن يستكمل بهذا العمل وينتفع به لم يكن ذلك تضحيةً وإيثاراً.

أعتقد أنّنا إذا تصوّرنا قدرة الله سبحانه وعظمته بشكلٍ واضحٍ، وعرفنا أنّه سبحانه يمكن أن يوجِد ملايين من أمثال هذا العالم المادّيّ أو يفنيها في لحظةٍ عرفنا أنّه ليس هناك معنىً لحاجته إلى معرفة هذا الإنسان به وعبادته له، وما هو حجم هذا الإنسان ومكانته في هذا الكون المادّيّ حتّى يحتاج الخالق سبحانه إليه! وهل يزيد ذلك في عظمة الله شيئاً!

إنّ التأمّل الحيّ في الموضوع كفيلٌ بانتباه الإنسان إلى استغنائه تعالى عن خلقه، فلا تكون غايته غاية استكمال، ولكنّ وجود الغاية له يمثّل حكمته تعالى في فعله، ومن ثَمّ نجد النصوص الدينيّة تؤكّد على هذا المعنى، كما قال تعالى[1]: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾، وقال الإمام علي عليه السلام[3]: ((فَإِنَّ اللهَّ سُبْحَانَه وتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ)).

على أنّه ينبغي التفات الباحث عند الحديث عن غاية الله سبحانه أنّ الإحاطة بهذا الموضوع أمرٌ غير متيسّرٍ للإنسان؛ لأنّه لا يحيط بالكون ونهاياته ولم يطّلع بعدُ على الوجه الآخر للكون، وهو النشأة الأخرى الموعود بها في الدين.

---

(١) سورة فاطر: ١٥ـ١٧.

(٢) سورة الممتحنة: ٦.

(٣) نهج البلاغة ص:٣٠٣، الخطبة:١٩٣.

البحث العاشر: في جريان فعل
الله تعالى على نظام الأسباب والمسبّبات

- دخالة الأسباب الطبيعيّة لا تنفي كون الطبيعة صُنْع الله سبحانه
- عدم مانعيّة نظام الأسباب للتدخّل الإلهيّ الخارق
- هل هناك خوارق في عالم الطبيعة؟

جريان فعل الله تعالى
على نظام الأسباب والمسبّبات

(البحث العاشر): في أنّ فعله سبحانه جارٍ على نظام الأسباب والمسببات.

إنّ الفعل الإلهيّ يمكن أن يقع على وجهين ..

(الأوّل): أن يقع بفعلٍ مباشرٍ من الله سبحانه.

(الثاني): أن يتّخذ الله سبحانه لتحقّق ما يريده أسباباً تفضي إلى النتائج المنظورة.

والذي يظهر بالتأمّل في النصوص الدينيّة وفي أحوال الكون والكائنات أنّ النظم الإلهيّ للكون يجري على الوجه الثاني، فهو سبحانه سنّ عالم الطبيعة على إفضاء أشياء إلى أشياء أخرى، من خلال عوامل طبيعيّة مؤدّية إليها.

فالوضع الكونيّ ـ فيما يُرجَّح ـ يبدأ من نقطة الصفر بخلق كتلة أوّليّة ثمّ تفجيرها ليجتمع الغبار الكونيّ وتتولّد المجرّات والنجوم خلال بلايين السنين، وتوجد من خلال ذلك الأرض الصالحة للحياة وفق ظروف كونيّة مواتية على ذلك، ثمّ أُوجدت الكائنات الحيّة بخلق النموذج الأوّل منها، ثمّ أُنيط تكاثرها بأمور مختلفة، من جملتها نظام التزاوج؛ لينشأ الكائن من خلال نطفةٍ مخلّقة ثمّ ينمو تدريجاً، وهكذا كان الحال في عامّة شؤون هذه الحياة على ما يجده الإنسان عياناً.

إنّ نظام الأسباب والمسبّبات أكثر روعةً ودلالةً على المقدرة من نظام الخلق البحت، حيث خُلق الكون على نحو مصنعٍ كبيرٍ منتجٍ جُعلَت فيه أشياءٌ سبباً لأشياءٍ أخرى، كما مرّ منّا إيضاح ذلك في بحث القدرة.

دخالة الأسباب الطبيعيّة لا تنفي كون الطبيعة صُنْع الله سبحانه

وهناك عدّة انطباعات غير صائبة تتعلّق بالموضوع ..

(الانطباع الأوّل): ما يفترض أنّ حدوث الأشياء في أثر عوامل طبيعيّة تؤدّي إليها ينفي تدبير الله سبحانه للكون والكائنات وكونها من صنيعه تعالى؛ ومن ثَمّ يُظنّ أنّ الوضع الكونيّ القائم ليس فعلاً منسوباً إلى الله سبحانه ومنظوراً له لكونه قد حدث بعوامل طبيعيّة بعد الانفجار الكونيّ، كما أنّ الكائنات الحيّة لو قُدّر حصولها من خلال التطوّر من كائن أوّليّ بدائيّ لن تكون من صنع الله سبحانه وخلقه.

وهذا اعتقادٌ خاطئ، فالخالق للكون بطبيعة الحال يكون عالماً بكوامنه وقابليّاته، مطّلعاً على مآله وتطوّراته، بل هذه التطوّرات كلّها نتاج سننٍ سنّها وقوانين خطّطها، كما أوضحنا ذلك في أبحاثٍ سابقة.

وليس استغراق التطوّر الكونيّ والأحيائيّ لهذه المُدَد الطويلة بالذي يعني أنّه لم يكن منظوراً له سبحانه؛ فإنّ هذا المقدار من الزمان لا يُعَدّ شيئاً في التقدير الإلهيّ المهيمن على الأزمان، وقد قال سبحانه[1]: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾، ولكن ربّما ينظر الإنسان إلى طول هذا الزمان بالنظر إلى مجموع عمره الذي لا يتجاوز بضعة عقود.

عدم مانعيّة نظام الأسباب للتدخّل الإلهيّ الخارق

(الانطباع الثاني): قد ظنّ فريقٌ من الناس أنّ نظام الأسباب والمسبّبات يمنع إمكان التدخّل الإلهيّ الخارق بما يحول دون فاعليّة هذا النظام.

وهذا الظنّ غير صائب؛ لأنّ الإنسان لا يحيط بكنه عالم الطبيعة ولا كامل العوامل

---

(١) سورة الحجّ: ٤٧.

المؤثّرة فيه، نظير خفاء السبب في بعض ما يحدث في الجسيمات دون الذرّيّة. **وعليه** فليس من الممتنع أن يكون هناك منفذ في عالم الطبيعة للحيلولة دون تأثير العوامل المعتادة فيها كما ذكرنا ذلك من قبل.

إنّ النصوص الدينيّة الموثوقة تؤدّي بوضوح إلى أنّ الله سبحانه يملك زمام كلّ ما خلقه من الكون والكائنات، وله فيها مفاتيح يستطيع أن يوجّهها إلى ما يشاء، سواء في ذلك ما كان على وجهٍ لطيفٍ لا يُمثّل خرقاً لقوانين الطبيعة أو بنحوٍ خارقٍ لها؛ ومن ثَمّ يدعو المؤمنون بالدين اللهَ سبحانه لقضاء حوائجهم وتوجيه أمورهم نحو الأفضل والأيسر.

هل هناك خوارق في عالم الطبيعة؟

(الانطباع الثالث): ما يرى أنّه ليس هناك أيّ دليلٍ على وقوع خوارق في الكون؛ إذ لا توجد حالةٌ معاصرةٌ خارقةٌ بشكلٍ يقينيٍّ وما يُحكى في الأديان من وقوع الخوارق في الأزمنة السابقة لم يثبت في شيءٍ منها كونه قد شهد وقوعه جماعةٌ لا يجوز عليهم الخطأ من الناس، وإنّما هي على الأغلب من قبيل الأساطير الشائعة بين الأقوام.

ولكن ينبغي الانتباه في شأن هذا الانطباع إلى أمرين ..

(أوّلاً): أنّ العلم يرجّح وجود تدخّل خارق في شأن الطبيعة في جملةٍ من الموارد من جملتها أصل وجود الكون المادّيّ، حيث يرجّح العلم عدم كونه أزليّاً بل حادثاً بالانفجار الكبير، كما أنّ العلم يرجّح وجود عنايةٍ في توجيه الكون إلى الوضع الذي يسمح بالحياة من خلال اختيار الخيار الملائم لها بالرغم من قيمته الضئيلة جدّاً ـ كما سبق توضيح ذلك ـ كما أنّ الافتراض الراجح إلى الآن في شأن نشأة الحياة أنّها ذات أساسٍ خارق.

إذاً وقوع تصرّفٍ خارقٍ في الكون المادّيّ أمرٌ متوقَّعٌ في جملةٍ من الموارد بحسب المعطيات العلميّة.

و(**ثانياً**): أنّ الصحيح بعد التأمّل في تاريخ الأديان ـ ولاسيّما في الإسلام ـ أنّ ادّعاء كون الخوارق المحكيّة فيها من قبيل الأساطير على وجه التعميم ناشئ عن محض استبعاد، أو الإيغال في الشكّ تجاه القضايا التاريخيّة؛ لأنّ جملةً من الحوادث التاريخيّة المحكيّة توجد عليها مؤشّرات لا يُلام من وثِق بسببها عند العقلاء، من قبيل نجاة بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام من فرعون مصر بما تضمّن بعض الحوادث الخارقة. وولادة مريم الطاهرة للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وإخبار القرآن الكريم بجملةٍ من الحوادث المستقبليّة، بل يعدّ القرآن الكريم نفسه معجزةً بيانيّةً وبلاغيّةً منذ نزوله حتّى الآن، فهو نصٌّ دينيٌّ رائعٌ لا يشبهه أيّ نصٍّ في موضوعه حتّى لو اقتفى أثره.

ولا ينبغي أن يكون التوسّع الخاطئ أو المريب للناس أو الروايات في أمر الخوارق موجباً للجزم بالخطأ والكذب أو الريبة في جميعها، وإن كانت الثقافة المادّيّة الغالبة في هذا العصر قد تغري الإنسان بمثل هذا الجزم أو الريبة.

يُضاف إلى ذلك: أنّ هناك حالات معاصرة أو قريبة يتوقّع فيها بعض الموثوقين من الأطبّاء حدوث الشفاء بطريقةٍ غير اعتياديّةٍ كما يتّضح بمتابعتها عن قربٍ واطّلاع.

البحث الحادي عشر: في اتّصاف

الله سبحانه في صنائعه بالذوق الجميل

- التنبيه على هذه الصفة في القرآن الكريم
- خلق الله سبحانه ذوق الإنسان على وفق ذوقه تعالى
- شبَه الإنسان بالخالق في جملةٍ من الصفات منها الذوق الجماليّ

اتّصاف الله سبحانه

في صنائعه بالذوق الجميل

(البحث الحادي عشر): في اتّصاف الله سبحانه في صنائعه وأفعاله بما يعبّر عن مثله في الخلق بـ(الذوق الجميل).

إنّ من جملة الأمور التي يجدها الإنسان بالنظر العميق في الكون والكائنات هو اتّصافها كلّها بنحوٍ من الروعة والأناقة والجمال. كما يلفت إلى ذلك الآيات القرآنيّة في مقام الاستشهاد بالخلق على الخالق.

فالكائنات كما نشهدها ليست ممثّلةً للنظم والاقتدار فحسب، بل هي ممثّلةٌ لذوقٍ فنّيٍّ[1] راقٍ للغاية، ويتمثّل الذوق في تركيب الكائنات وهندستها وتناسق أجزائها وتناسب صورتها وطبيعة الألوان التي استُخدمت فيها، فلو أنّنا نظرنا إلى صورة الوضع الكونيّ وصور الكائنات بنحوٍ تجريديٍّ ـ كأنّها رسوم ـ لشعرنا أنّ صورة كلّ واحدةٍ منها لوحةٌ فنّيّة.

وهذا أمرٌ يجده علماء الطبيعة كلٌّ في ما هو موضع اختصاصه، فعلماء الكونيّات يجدون نظماً رائعاً للمجرّات والنجوم في داخلها، وعلماء الجغرافيا يجدون منظراً جميلاً ومذهلاً للأرض بجبالها وأنهارها وبراكينها ومعادنها ونباتها.

وكذلك يجد علماء النباتات والحيوانات في كلّ كائنٍ لوحةً فنّيّةً جميلة؛ ومن ثَمّ يشعرون بالألم والأذى كلّما انقرض نوعٌ نباتيٌّ وحيوانيٌّ في أثر تصرّفات الإنسان في

---

(١) التعبير بـ(الذوق) في شأن الباري سبحانه وتعالى على سبيل الاستعارة، وهو توسُّعٌ اقتضاه السعي في الإيفاء بالمعنى المراد. والمقصود به ما ذكرناه أوّلاً من أنّه يعبّر عن مثله في الخلْق بالذوق، فلاحظ.

الأرض، ويرون أنّ ذلك ضياعٌ لثروةٍ أحيائيّةٍ لن تُعوَّض.

بل يجد علماء الفيزياء جمالاً في تكوين الذرّة والمعادلات الكونيّة، ويجد علماء الأحياء جمالاً مذهلاً لتكوين الخليّة والحمض النوويّ كما ذكرنا ذلك من قبل في مباحث وجود الإله.

نعم، يشعر الإنسان بقذارة بعض الحيوانات وأذاها، ولكنّ هذا الشعور إنّما هو من جهة النظر إليه من منظور النظافة أو التناول أو السلامة، وأمّا لو نظرنا إليه من منظورٍ أحيائيٍّ فإنّ كلّ كائنٍ حيٍّ يمثّل كائناً رائعاً فريداً، حتى أنَّ أحد الباحثين الألمان قد صوّر الخنفساء البرتقاليّة اللون ـ والتي هي من الحشرات المستقذَرة ـ تصويراً ذا أبعادٍ ثلاثةٍ بالأشعّة الملوّنة وهو يبدي الإعجاب بها.

ويكفي في الوقوف على ذوق الخالق أن ينتبه الإنسان إلى مظهر الكائنات الحيّة كالإنسان ويتأمّل النظم والجمال فيه، **مثل**: تركيب الوجه واشتماله على العينين والأذنين والأنف الواحد على هذا النحو الذي نجده، ولك أن تفرض سائر الوجوه التي كان يمكن تركيب الإنسان عليه في مواضع الأعضاء وتوزيعها، كما لو خُلقَت عينٌ واحدةٌ وأذنٌ واحدةٌ ضمن هذا المظهر نفسه، أو جُعلت العين والأذن في مكانٍ أدنى أو أعلى من موضعهما إلى غير ذلك.

وعلى الإجمال: فتركيبة الكون والكائنات ذات سماتٍ هندسيّةٍ وفنّيّةٍ راقيةٍ ممّا يمثّل ذوق الصانع لها.

التنبيه على هذه الصفة في القرآن الكريم

هذا، وقد ألْفَتَ القرآن الكريم الإنسان إلى هذه الروعة في الخلق، قال تعالى[1]:

---

(١) سورة الرعد: ٣ـ٤.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقال سبحانه(١): ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

وقال عزّ من قائل(٢): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(٣)﴾.

وقال جلّ جلاله(٤): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾.

وقال سبحانه(٥): ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

---

(١) سورة النحل: ٥ـ٦.

(٢) سورة الزمر: ٢١.

(٣) هذه الآية أشارت إلى المظاهر الجمالية في هذه الحياة عرضاً لبيان انقضائها.

(٤) سورة فاطر: ٢٧ـ٢٨.

(٥) سورة الروم: ٢١ـ٢٣.

وقال تعالى بعد ذكر خلق الإنسان خلال مراحل[١]: ﴿**فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ**﴾.

وقال عزّ من قائل عن خلق الإنسان[٢]: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾، وقال جلّت آلاؤه[٣]: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ المَصِيرُ**﴾.

وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى[٤]: ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، فإنّ (البديع) وإن كان يفسَّر بما لم يكن على مثالٍ سابق، لكنّه قد يتضمّن كون الشيء رائعاً وجميلاً.

ومن الملفت في هذا السياق أنّ ما جاء في وصف نعيم الآخرة ومشاهدها يوافق الذوق الجماليّ المتمثّل في الكون والكائنات في هذه الحياة، فقد جعل محلّها الجنّة وهي بمعنى البستان ووصفت هي وما فيها وصفاً رائعاً، قال سبحانه[٥]: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَـهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾، وقال تعالى[٦]: ﴿**وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾، وقال عزّ من قائل[٧]: ﴿**أُولَـئِكَ لَـهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن**

---

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

(٢) سورة التين: ٥.

(٣) سورة التغابن: ٣.

(٤) سورة البقرة: ١١٦، وسورة الأنعام: ١٠٠.

(٥) سورة البقرة: ٢٥.

(٦) سورة التوبة: ٧٢.

(٧) سورة الكهف: ٣١.

ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

وقد ورد في النصوص ما يدلّ على أنّ الله سبحانه يحبّ النظافة، وهي طبعاً من شؤون الجمال والذوق الفنّيّ، وفُسّر بذلك قوله تعالى[1]: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾، فقيل: إنّ المراد بالطهارة هي الطهارة من الخبث.

وجاء في الحديث عن النبيّ ﷺ[2] والأئمّة من آل البيت عليهم السلام[3] في مواضع عدة: ((إنّ الله جميلٌ يحبّ الجمال)).

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٢) ففي مسند أحمد (ج:١ ص:٣٩٩) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبّةٍ من إيمانٍ، ولا يدخل الجنّة مَن كان في قلبه مثقال حبّةٍ من كِبَر، فقال رجل: يا رسول الله، إنّي ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ورأسي دهيناً وشراك نعلي جديداً وذكر أشياء حتّى ذكر علّاقة سوطه، أفمن الكبر ذلك يا رسول الله؟ قال: لا، ذاك الجمال، إنّ الله جميلٌ يحبّ الجمال، ولكنّ الكِبر من سفّه الحقّ وأذرى الناس)). ولاحظ صحيح مسلم ج:١ ص:٦٥، ومستدرك الصحيحين ج:١ ص:٢٦، وج:٤ ص:١٨١.

وفي الحديث عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((أبصر رسول الله ﷺ رجلاً شعثاً شعر رأسه وسخة يتأبّه سنيّة حاله، فقال رسول الله ﷺ: من الدين المتعة))، وعنه ﷺ: ((بئس العبد القاذورة)) وسائل الشيعة ج:٣ ص:٣٤١.

(٣) ففي الأثر عن أمير المؤمنين عليه السلام: ((إنّ الله جميلٌ يحبّ الجمال، ويحبّ أن يرى أثر نعمه على عبده))، وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((إنّ الله عزّ وجلّ يحبّ الجمال والتجمّل، ويبغض البؤس والتباؤس))، وعنه عليه السلام: ((إذا أنعم الله على عبدٍ بنعمةٍ أحبّ أن يراها عليه؛ لأنّه جميلٌ يحبّ الجمال))، وعنه عليه السلام أيضاً: ((البس وتجمّل فإنّ الله جميلٌ يحبّ الجمال، وليكن من حلال)) وسائل الشيعة ج:٣ ص:٣٤٠.

خلق الله سبحانه ذوق الإنسان على وفق ذوقه تعالى

وقد يقول القائل: إنّ منشأ تذوّق الإنسان للكون والكائنات وشعوره بجمالها وروعتها هو أنّ الصانع قد خلقها على نحوٍ يلائم ذوق الإنسان الذي هو الكائن العاقل الوحيد الذي يتميّز بالذوق والشعور العالي بالجمال، وهو المنظور الأوّل بخلق الكون المادّيّ.

وهذا القول ليس خطأً، لكن على الرغم من ذلك قد يكون من أبعاد ذلك أنّ الخالق سبحانه قد خلق الإنسان على ذوقه، فكان ذوقه كمذاق الخالق فيما يوجب الجمال.

شبَه الإنسان بالخالق في جملةٍ من الصفات منها الذوق الجماليّ

هذا، ومن الملاحَظ وجود نحو شبهٍ بين الله سبحانه وبين الإنسان في جملةٍ من الصفات ـ مع أنّه لا يُقاس بالله عزّ وجلّ شيءٌ في حالٍ ـ وهو قد يُعَدّ من أبعاد ما ورد في القرآن الكريم من التعبير عن روح الإنسان بأنّه نفخةٌ من الروح الإلهيّة[1].

فمن تلك الصفات العلم، فالإنسان يتميّز عن الكائنات المادّيّة بالقدرة على تحصيل العلم والتوصّل إلى قوانين الكون، وإن كانت هذه المعرفة ناقصةً وطارئةً بعد بذل الجهد الكثير، ولكنّ معرفة الله سبحانه كاملة وغير طارئة بل هي من صفات ذاته المقدّسة.

ومن صفات الإنسان أيضاً أنّه يتميّز عن الكائنات المادّيّة الأخرى بالضمير الأخلاقيّ المنطوي على حبّ العدل والصدق والوفاء بالالتزام والإحسان وغيرها، وكذلك الله سبحانه يتّصف بهذه الصفات، كما ورد في النصوص القرآنيّة، على فرقٍ في حدود اللياقات الأخلاقيّة بين الله سبحانه وبين خلقه على ما سيأتي توضيحه.

---

(١) قال سبحانه في خلق آدم عليه السلام: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ (سورة الحجر: ٢٩، سورة ص: ٧٢)، وقال تعالى أيضاً: ﴿**ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ (سورة السجدة: ٩).

ومن جملة صفات الإنسان أيضاً الذوق ـ كما هو محلّ الشاهد ـ حيث يشعر بالجمال والروعة من بعض المشاهد، **مثل**: العيون والينابيع والخضرة والسحاب والجبال، كما أوجدها الله سبحانه وتعالى.

البحث الثاني عشر: في محبّة الله سبحانه للتواصل مع خلقه العقلاء

- الأديان الإلهية تؤكد محبة الخالق للتواصل مع خلقه
- بعث الرسل من مظاهر محبة الخالق للتواصل وعنايته بخلقه
- قواعد الارتباط بين الخالق وخلقه هي قواعد الضمير الأخلاقي
- صور لعلاقة الله سبحانه بالتواصل مع الخلق

محبّة الله سبحانه

للتواصل مع خلقه العقلاء

(البحث الثاني عشر): في أنّ الله سبحانه يحبّ التواصل مع خلقه المدرِكين له، كما يحبّ تواصلهم معه[1].

وقد يعترف البعض بالإله، ولكنّه يفترض أنّ علاقة الله سبحانه بالكون والكائنات إنّما هي علاقة تكوين فحسب، فلا عناية له أصلاً بمعرفة خلقه العقلاء به، ولا اهتمام له بمخاطبتهم وتواصلهم بل هو مُعرِض عنهم، ومَن ذا يكون الإنسان في هذا الكون الفسيح بإزاء الخالق، حتّى يكون له شأن في الارتباط به!

وقد يزيد بعضٌ آخر على هذا المقدار بأنّه ليس هناك إمكانيّة للإنسان للتواصل مع ما وراء الطبيعة؛ ومن ثَمّ لا محلّ لعناية الخالق بتواصل الإنسان معه، ولا لاهتمام الإنسان بالاتّصال بالله سبحانه وذكره وسؤاله.

وقد يضيف بعضٌ آخر بأنّه ليس هناك قواعد في داخل الإنسان تنظّم الارتباط بينه وبين الخالق على حدّ الضمير الذي ينظّم الارتباط بين الإنسان وبني نوعه ومع سائر الكائنات؛ فإنّ الخالق سبحانه هو فوق الإنسان وضميره الأخلاقيّ، فليس مشمولاً بأحكام هذا الضمير وإنّما شأن الضمير الإيفاء بنظم الارتباط بين الإنسان وبني نوعه.

الأديان الإلهية تؤكد محبة الخالق للتواصل مع خلقه

هذا، ولكنّ الذي ورد في الأديان الإلهيّة أنّ الله سبحانه يحبّ التواصل مع خلقه كما

---

(١) ويعبَّر عن مثل هذه الصفة في الإنسان بأنّه كائنٌ اجتماعيٌّ؛ لكون هذه الصفة نابعةً من ذاته. ولكنها تُعَدّ في الله سبحانه من صفات الفعل لا الذات.

يحبّ ويقدّر تواصلهم معه، ويبدو هذا المعنى أمراً مناسباً مع خلقه للإنسان بهذه الخصائص، فهو سبحانه قد وهب للإنسان قدرة التعقّل والتفكير الذي يمكن أن يعرف من خلاله الله سبحانه، وجعل فيه شعوراً ينزع إلى الإله، وأعطى له الضمير الذي يمكن أن يسعى من خلاله إلى شكر الله سبحانه على خلقه وتمكينه من النعم العظيمة، ومن شأن خلق مثل هذا الكائن العناية بالتواصل معه، كما يلاحَظ أنّنا إذا صنعنا شيئاً ذا خصائص معيّنة فإنّ هناك عنايةً منّا باستعماله فيما يناسب تلك الخصائص.

بعث الرسل من مظاهر محبة الخالق للتواصل وعنايته بخلقه

وقد كان من مظاهر عناية الله سبحانه بالارتباط مع خلقه أن بعث رسلاً إلى الإنسان يعرّفهم من خلالهم بنفسه، ويشرح لهم أبعاد الحياة، ويستجيب لهم في دعائهم بما تسمح به مقاديره للحياة، ويوصي بعضهم بالإحسان إلى بعض.

وأمّا تعذّر التواصل بين الله سبحانه وبين الخلق فهو ليس أمراً واضحاً؛ لأنّه يكفي في التواصل كون الله سبحانه معنيّاً بالإنسان ومستجيباً له من جهة، وزرعه الشعور بكائنٍ أعلى فيه من جهةٍ أخرى، واستطاعة الإنسان من اكتشاف وجود الله سبحانه ومناجاته وسؤاله.

قواعد الارتباط بين الخالق وخلقه هي قواعد الضمير الأخلاقي

وأمّا قواعد الارتباط بين الإنسان وبين الخالق سبحانه فهي قواعد الضمير الأخلاقيّ نفسه التي تنظّم العلاقة والارتباط بين الناس، فالله سبحانه خالقٌ ومنعمٌ ومعنيٌّ بالخلق، وعلى الخلق أن يكونوا معه بما يليق من الأدب والتقدير والشكر وفق الضمير الأخلاقيّ.

فالضمير الأخلاقيّ هو النظم الذي ينظّم العلاقة بين كلّ كائنٍ عاقلٍ وما عداه من الكائنات، ولاسيّما ذوي العقول منهم، فللّه سبحانه خُلُق ومبادئ فاضلة في تعامله مع

خلقه، وعلى العباد أن يتعاملوا معه سبحانه بضميرهم الأخلاقيّ، وسيأتي تفصيل ذلك في البحث اللاحق.

صور لعلاقة الله سبحانه بالتواصل مع الخلق

ومن صور علاقة الله سبحانه بخلقه في النصوص الدينيّة ما يأتي ..

(الصورة الأولى): محبّته تعالى إيمان الخلق به ومحبّتهم إيّاه وشكرهم له ومبادلتهم على ذلك من قِبله سبحانه بالمحبّة والشكر، قال تعالى(١): ﴿**مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾، وقال سبحانه(٢): ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾، وقال عزّ من قائل عمّن تلا كتاب الله وأقام الصلاة وأنفق في سبيله(٣): ﴿**لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ ـ يصف فيه محبّة الله سبحانه رجوع الإنسان إليه واعتذاره منه إذا ما أساء بمعصية ـ قال(٤): ((لله أشدّ فرحاً بتوبة أحدكم من أحدكم بضالّته إذا وجدها))، وفي الصحيح عن أبي جعفر الباقر عليه السلام(٥): ((إنّ الله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجلٍ أضلّ راحلته وزاده في ليلةٍ ظلماء فوجدها، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها)).

وممّا يتّصل بذلك عتبه على الإنسان جحوده وكفرانه لنعمه تعالى، قال سبحانه(٦):

---

(١) سورة النساء: ١٤٧.

(٢) سورة آل عمران: ٣١.

(٣) سورة فاطر: ٣٠.

(٤) صحيح مسلم ج:٨ ص:٩١.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٤٣٥، ح:٨.

(٦) سورة سبأ: ١٣.

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، وقال تعالى[١]: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

(الصورة الثانية): اتّخاذه تعالى أخلّاء من الخلق ومناجاته إيّاهم في ذوات أنفسهم، كما قال تعالى[٢]: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، ومن كلام الإمام علي عليه السلام قاله[٣]عند تلاوته ﴿يُسَبِّحُ لَه فيها بِالْغُدُوِّ والآصالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾: ((إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الذِّكْرَ جِلاَءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ، وَمَا بَرِحَ لله عَزَّتْ آلاَؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ، عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الأَسْمَاعِ وَالأَبْصَارِ وَالأَفْئِدَةِ)).

(الصورة الثالثة): عواطف[٤] الله سبحانه مع خلقه ..

(منها): استجابته تعالى لحسن ظنّهم به، ففي حديث صحيح عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال[٥]: ((وجدنا في كتاب علي عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال وهو على منبره ـ في

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٢ـ٣٤.

(٢) سورة النساء: ١٢٥.

(٣) نهج البلاغة ص:٣٤٢، الخطبة: ٢٢٢.

(٤) على توسّعٍ في هذا الإطلاق.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٧١.

حديث ـ: والذي لا إله إلّا هو ما أُعطي مؤمن قطّ خير الدنيا والآخرة إلّا بحسن ظنّه بالله ورجائه له، وحُسن خُلِقه والكفّ عن اغتياب المؤمنين.. والذي لا إله إلّا هو لا يحسن ظنّ عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظنّ عبده المؤمن، لأنّ الله كريم، بيده الخيرات، يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظنّ ثم يخلف ظنّه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظنّ وارغبوا إليه)).

و(**منها**): أنّه سبحانه أخذ على نفسه على أن لا يردّ دعاء من دعاه، إمّا باستجابة الدعوة نفسها أو في تقدير خير منها للداعي، ففي حديث قويّ بشواهده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام[1] في أنّ العبد إذا دعا الله ((قال ـ تعالى ـ: لبّيك عبدي، لئن عجّلت لك ما سألت إنّي على ذلك لقادر، ولئن أخّرت لك فما ادّخرت لك فهو خير لك)).

وقال الإمام علي عليه السلام[2] في وصيّة لابنه الحسن عليه السلام: ((وَاعْلَمْ، أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالاْجَابَةِ، أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بَالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالاْنَابَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى، وَلَمْ يُشدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الاْنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفتحَ لَكَ بَابَ المَتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاك، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَك، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَى

(١) الكافي ج:٢ ص:٢٥٣.

(٢) نهج البلاغة ص:٣٩٨ـ ٤٠٠.

إِعْطَائِهِ غيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ.

ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعَمِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلاَ يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الاْجَابَةُ، لِيَكُونَ ذلِكَ أَعْظَمَ لاَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الاْمِلِ، وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلاَ تُؤْتاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْر قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلاَكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسَأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَالْمَالُ لاَ يَبْقَى لَكَ وَلاَ تَبْقَى لَهُ)).

و(**منها**): أنّه سبحانه أخذ على نفسه أن يجعل كلّ ما يتّفق لمن اعتقد به في الحياة من سعة ورخاء أو ضيق وبلاء خيراً له في حاضره ومستقبله، ففي الحديث عن علي بن الحسين السجّاد عليه السلام قال[1]: ((الصبر والرضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه فيما أحب أو كره لم يقض الله عزّ وجلّ فيما أحبّ أو كره إلّا ما هو خير له)).

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام[2]: ((أنّ فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى بن عمران ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من عبدي المؤمن، فإنّي إنّما أبتليه لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له، وأزوي عنه ما هو شرّ له لما هو خير له)).

و(**منها**): حبّه سبحانه عبادة عباده إيّاه، كما عن أبي جعفر الباقر عليه السلام[3] عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث أنه قال: ((ما يتقرّب إليَّ عبد من عبادي بشيء أحبّ ممّا افترضت عليه، وإنّه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت إذاً سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، وإن دعاني أجبته، وإن سألني

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٦٠.

(٢) الكافي ج:٦ ص:٦١.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٣٥٢ـ٣٥٣.

أعطيته)).

و(**منها**): حبّه سبحانه التعاطف والتراحم بين عباده، وتفضيله ذلك على عبادتهم إياه، كما في حديث قويّ بشواهده عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام[1]: ((قال عزّ وجلّ: الخلق عيالي، فأحبّهم إليّ ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم)).

ونظير هذه المعاني في الأحاديث والآثار كثير.

(١) الكافي ج:٢ ص:١٩٩.

البحث الثالث عشر: في محبة الله سبحانه لخلقه وحبّ الخصال الفاضلة فيهم

- محبة الخالق لخلقه واستتباع الخَلْق لمحبة زائدة
- محبة الخالق للخصال الفاضلة في خلقه
- استفاضة القرآن الكريم في بيان محبة الخالق لخلقه ولأعمالهم الفاضلة
- كراهة الخالق للأعمال الخاطئة وأهلها

محبة الله سبحانه لخلقه
وحبّ الخصال الفاضلة فيهم

(**البحث الثالث عشر**): في أنّ الله سبحانه يحبّ خلقه ويحبّ الخصال الفاضلة فيهم.

ربّما كان الانطباع عن الإله في كثير من العقائد أنّ الإله يحبّ التحكّم بالخلق فحسب ويستجيب لهم في هذا السياق.

ولكنّ الذي جاء في الدين أنّ لله سبحانه وتعالى صفتين أخريين ..

أمّا إحداهما فهي أنّه عزّ وجلّ يحبّ خلقه.

وأمّا الأخرى فهي أنّه يحبّ الخصال الفاضلة فيهم.

وهذا يبدو مناسباً مع خلقه سبحانه لهم ..

محبة الخالق لخلقه واستتباع الخَلْق لمحبة زائدة

أمّا (**الصفة الأولى**) فلأنّه لولا محبّته لهم لم يخلقهم، ثمّ إنّ خلقه إيّاهم يستتبع محبّةً زائدةً لهم أيضاً؛ لأنّهم من صنعه وإيجاده.

ويمكن تقريب ذلك إلى الذهن بالالتفات إلى حال الوالدين؛ فإنّهما يحبّان أن يكون لهما ولد، ومن ثَمّ يقدمان على الزواج والإنجاب، ثمّ إنّهما إذا أنجبا الولد أحبّاه من جهة وشيجة الأبوّة والأمومة فيما بينهما وبينه، وهذا هو الداعي إلى تحمّلهما الكثير في سبيل إسعاده وتربيته، كما أنّ هذه الوشيجة وما يتبعها من العناية والاهتمام هو الذي يرسم الاستحقاقات المتبادلة بين الآباء والأبناء في ضمير الطرفين والمجتمع الإنسانيّ.

محبة الخالق للخصال الفاضلة في خلقه

وأمّا (**الصفة الثانية**) فلأنّ الله سبحانه لما أودع الأخلاق الفاضلة في داخل الإنسان

أحب تعاملهم معه سبحانه وفيما بينهم بهذه الأخلاق الكريمة والفاضلة.

استفاضة القرآن الكريم في بيان محبة الخالق لخلقه ولأعمالهم الفاضلة

وقد ورد بيان محبّته تعالى لخلقه في القرآن الكريم بألفاظ مختلفة من المحبّة والودّ واللطف والرحمة والرأفة وغير ذلك، كما قال تعالى(١): ﴿**اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ**﴾، وقال سبحانه(٢): ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾، وقال عزّ من قائل(٣): ﴿**رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾، وقال جلّت آلاؤه(٤): ﴿**وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**﴾، وقال تعالى(٥): ﴿**فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾، وقال سبحانه(٦): ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾.

كما ورد بيان محبّته تعالى للأعمال الفاضلة من الخلق وأهلها، كما قال تعالى(٧): ﴿**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾، وقال سبحانه(٨): ﴿**بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ**

---

(١) سورة الشورى: ١٩.

(٢) سورة الحديد: ٩.

(٣) سورة الإسراء: ٦٦.

(٤) سورة هود: ٩٠.

(٥) سورة النحل: ٤٧.

(٦) سورة النحل: ٥ـ٧.

(٧) سورة البقرة: ١٩٥.

(٨) سورة آل عمران: ٧٦.

يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وقال عزّ من قائل[١]: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾، وقال جلّت آلاؤه[٢]: ﴿**فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَـهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾، وقال تعالى[٣]: ﴿**لَّا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾.

وقد جاء في كتب السيرة النبوية[٤] أنه لما جيء بسفانة ابنة حاتم الطائي قالت: يا محمد إن رأيت أن تخلّي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني ابنة سيّد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفكّ العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يَرُد طالب حاجة قط، وأنا ابنة حاتم طيء. فقال النبي ﷺ: ((..خلّوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق)). فقام أبو بردة بن نيار فقال يا رسول الله: والله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق)).

كراهة الخالق للأعمال الخاطئة وأهلها

وورد كراهته سبحانه للأعمال الخاطئة وأهلها، كما قال تعالى[٥]: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾، وقال تعالى[٦]: ﴿**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى**

(١) سورة آل عمران: ١٣٤.

(٢) سورة التوبة: ٧.

(٣) سورة الممتحنة: ٨.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ج:١ ص:١٠٩.

(٥) سورة البقرة: ١٩٠.

(٦) سورة البقرة: ٢٠٥.

فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾، وقال عزّ من قائل[١]: **﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾**، وقال جلّت آلاؤه[٢]: **﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾**، وقال تعالى[٣]: **﴿لَّا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾**، وقال سبحانه[٤]: **﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾**، وقال عزّ وجلّ[٥]: **﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾**.

هذا، وسيأتي ما يتعلّق بهذا الموضوع في البحث المقبل.

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٦.

(٢) سورة النساء: ١٠٧.

(٣) سورة النساء: ١٤٨.

(٤) سورة القصص: ٧٧.

(٥) سورة لقمان: ١٨ـ١٩.

البحث الرابع عشر: في العدل أو الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه

- أمورٌ يجب البحث عنها
- (١). إثبات الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه
- (٢). محتوى الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه
  - تذكير القرآن الكريم بحقّ الله سبحانه على الخلق
  - السؤال عن انسجام تمسّك الله سبحانه بحقّه مع غناه
  - وجوه لطف الله سبحانه بالخلق
- (٣). اشتمال الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه على الفضل
- (٤). تفرّع جعل الضمير الأخلاقيّ في الإنسان على الضمير الأخلاقيّ للخالق
- (٥). الفرق بين الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه ولخلقه
- (٦). تساؤلات والتباسات حول الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه
  - ادّعاء جواز كلّ شيءٍ على الله سبحانه ونقده
  - لا دلالة لإناطة الأمور بمشيئته تعالى على تجويز كلّ شيء عليه
  - موارد يُدّعى عدم انسجامها مع الضمير الأخلاقيّ

العدل أو الضمير الأخلاقيّ[1] لله سبحانه

(البحث الرابع عشر): في ثبوت الوصف الأخلاقيّ لله سبحانه الذي يُعبَّر عن مثله في الإنسان بالضمير الأخلاقيّ، أو قُل: نظام وسنن عمل الله سبحانه مع خلقه، وإليه ينتمي أصل العدل من أصول الدين.

ربّما كان انطباع كثيرٍ من العقائد والأديان تجاه الإله أو الآلهة التي يعبدونها أنّ للإله أن يفعل ما شاء بخلقه، فليس هناك أيّ حدودٍ يراعيها أو ينبغي له مراعاتها، فلا مبادئ أخلاقيّة تحكم أفعال الآلهة عدا ما يناسب روح الكبرياء والاستعلاء على الخلق، فهي تفعل ما تشاء كما تشاء حيث تشاء، والخلق محكومون مقهورون لها.

ولكنّ الذي جاء في الأديان التوحيديّة (الإبراهيميّة) والذي صدح به الإسلام الممثّل لها يغاير ذلك، حيث تدلّ نصوص القرآن الكريم أنّ لله سبحانه ضميراً أخلاقيّاً[2] يفرض من جهةٍ حقوقاً له تعالى على الخلق ويقتضي من جهةٍ أخرى حدوداً في معاملته مع الخلق، فهناك تقنين للعلاقة بين الله سبحانه وبين خلقه، فلا يجوز كلّ شيءٍ في تعامل الخلق مع الله تعالى ولا في تعامله سبحانه مع خلقه، بل هناك تصرّفات لو صدرت من الإله يكون ظلماً للخلق، وهو سبحانه منزَّهٌ عن التعسُّف والظلم.

وعليه فمقتضيات الضمير الأخلاقيّ تمثّل نظام تعامل الله سبحانه مع خلقه من أصحاب العقل والضمير، وهذا ينسجم مع ما قد سبق من قبل من أنّ أمور الخالق سبحانه كلّها منظَّمةٌ ومنسَّقة، وأفعاله مقنَّنةٌ وليست متفرّقة وعشوائيّة. فكلّ أموره سبحانه

(١و٢) والتعبير بـ(الضمير الأخلاقيّ) في حقّه تعالى استعارة وتوسّعٌ في التعبير، والمراد به ما ذُكر أوّلاً من التعبير عن مثل هذا الوصف في الإنسان بالضمير الأخلاقيّ وقد يقع التعبير عنه بالخُلُق الإلهيّ.

سواءً المادّيّة منها أو الروحانيّة والمعنويّة جاريةٌ على نظمٍ وقانونٍ سواءً كانت تجري هذه الأمور بفعلٍ مباشرٍ منه تعالى أو بأسبابٍ جعلها، وذلك من مقتضيات حكمته سبحانه(١).

هذا ودلالة النصوص على ذلك لم يكن باستخدام كلمة (الضمير) و(الوجدان) ـ وهما تعبيران متأخّران ـ ولا بما يقاربهما من لفظ الخُلق(٢)، بل بألفاظ أخرى تدلّ على

---

(١) وقد يبدو من خلال هذا الأمر أنّ الضمير الأخلاقيّ مبدأ لازم للعقل والاختيار، فكلّ كائن موصوف بالعقل والإدراك في نفسه والاختيار في سلوكه وعمله فالمفروض به أن يتعامل من خلال قواعد الأخلاق، ومن ثَمّ قد يعمَّم هذا المبدأ على الملائكة أيضاً فهم كائنات مدركة ومختارة في عملها وإن لم تكن فيهم غرائز تغريهم، ومن ثَمّ تجري في حقّهم لياقات يدركونها من قبيل عبادة الله سبحانه وطاعته وشكره، ومنها الإحسان إلى الخلق، ويندرج في ذلك استغفارهم للمؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (سورة غافر: ٧ـ٩)، والله أعلم.

(٢) قد ورد التعبير بـ(الخُلق) في شأن الله سبحانه في أحاديث مرسلة أو مسندة إسناداً ضعيفاً، ولم أقف على ذلك في أيّ حديث صحيح سواء من طريق الإماميّة أو سائر المسلمين.

منها: المرسل المشهور ـ المذكور في إحياء العلوم للغزاليّ والمصادر الأخلاقيّة والتفسيريّة من بعدها ـ: (تخلّقوا بأخلاق الله)، والظاهر أنّه لا أصل له بهذا اللفظ في كتب الحديث.

ومنها: ما في مكاتيب الرسول ج:٢ ص:٦١٤ـ ٦١٥ ـ عن إمتاع الأسماع للمقريزي ـ عن سيف عن سهيل بن يوسف عن أبيه عن عبيد بن صخر قال: عهد النبي ﷺ إلى العمّال على اليمن عهوداً: ((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا عهد من النبيّ رسول الله إلى فلان، وأمره أن يتّقي في أمره كلّه.. وخذهم بأخلاق الله واحملهم عليها، فإنّ الله تعالى يحبّ معالي الأخلاق ويبغض مذامّها)).

ومنها: ما في عمدة القاري للعينيّ (ج:١ ص:١٢٥)، قال: ومن حديث عبد الواحد بن زيد، عن عبد الله بن راشد عن مولاه عثمان (رض) قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنّ لله تعالى مائة خُلق، من أتى بخلق

منها دخل الجنّة)). قال لنا أحمد: سئل إسحاق: ما معنى الأخلاق؟ قال: يكون في الإنسان حياء، يكون فيه رحمة، يكون فيه سخاء، يكون فيه تسامح، هذا من خُلق الله عزّ وجلّ. وفي لفظ آخر للحديث فيه: ((مائة خلق وسبعة عشر))، وفي رواية: ((ستّة عشر))، وفي أخرى: ((بضعة عشر))، وفي رواية بدل (خلقاً) شريعة، والحديث ضعيف كما ذكر المناوي (فيض القدير ج:٢ ص:٦١١)، وذكر أنّ الطبراني روى في الأوسط بإسناد قيل: إنّه حسن: ((إنّ لله عزّ وجلّ لوحاً من زبرجدة خضراء تحت العرش كُتب فيه: أنا الله لا إله إلّا أنا أرحم الراحمين، خلقت بضعة عشر وثلاثمائة خلق، من جاء بخُلق منها مع شهادة أن لا إلا الله دخل الجنّة))، وهذا الحديث يتحدّث عن خُلق مخلوق لله تعالى وليس عن خُلقه سبحانه.

ومنها: ما رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (ص:٣٠) بإسناده عن الحسن قال: (ألا إنّ المعروف خُلق من خُلق الله وعليه جزاؤه)، وهذا الأثر موقوف على الحسن ـ وكأنّه البصريّ ـ. وروى أيضاً بإسناده عن جابر النخعي ـ هكذا، ولعلّ الصواب الجعفي ـ رفعه، قال: ((المعروف خلق من خلق الله كريم)).

ومنها: ما في كنز العمّال (ج:١٥ ص:٩٤٩، ح:٤٣٦٤٣) عن الخطيب وابن النجّار بالإسناد إلى أنس في حديث: ((وخير ما أُعطي الناس حسن الخلق، ألا وإنّ حسن الخلق خلق من أخلاق الله عزّ وجلّ))، ولاحظ تاريخ بغداد للخطيب (ج:٣٠ ص:٢٠٧) وضعّف الحديث في ميزان الاعتدال (ج:١ ص:٥٢٣).

ومنها: ما في ربيع الأبرار للزمخشريّ (ج:٣ ص:١٠٣) وفيض القدير للمناوي (ج:١ ص:٥٩٥) مرسلاً: ((أوحى الله إلى داود عليه السلام تخلّق بأخلاقي، ومن أخلاقي أنّني أنا الصبور)).

ويلاحَظ أنّ مقتضى الموازين النقديّة الحديثيّة والتاريخيّة هو أنّ إطلاق الخُلق في شأن الله سبحانه إطلاق حادث بعد عصر النصّ النبويّ، ويرجح أن يكون قد حدث في القرن الرابع الهجريّ أو قُبيل ذلك وما بعده في أوساط متصوّفة وأخلاقيّين، وأمّا الأحاديث المرويّة هي موضوعة أو قد يكون بعضها منقولاً بالمعنى فدخل هذ الإطلاق الحادث فيه من هذا الباب.

ولفظة (الخُلق) لا تناسب الذات الإلهيّة بالنظر إلى معناها الأصليّ، لأنّها مأخوذة من الخَلق، ثمّ فُرّق بين الخصال الجسديّة والخصال الروحيّة بالحركات فكان (الخَلْق) بالفتح فالسكون يعني الجسد، و(الخُلُق) بضمّتين يعني الروح، وعليه فمعناها في الأصل ما خُلق عليه الشيء، لكن هذه اللفظة أصبحت تُطلق على كلّ خصلة روحيّة ولو كانت مكتسبة، وربّما بقيت فيها إيحاءات تناسب الإنسان دون الإله.

السجيّة والطبع أو الدوام والاستمرار، ومنها ..

١ ـ الموارد اللغويّة التي هي من قبيل أفعال السجايا مثل (الكريم) المأخوذ من (كرُم)، و(اللطيف) المأخوذ من (لطُف)، و(الرحيم) المأخوذ من (رحم).

٢ ـ الأوصاف التي تدلّ على الملكة والشأنيّة، إمّا لكونها من قبيل الصفة المشبّهة ـ وهي صفة تدلّ على السجيّة والدوام ـ من قبيل (ودود)، أو من قبيل أوصاف المبالغة كالغفّار والغفور والرحمن، أو من قبيل الأوصاف الأخرى التي اكتسبت الدلالة على الشأنيّة كالجواد ولم يرد إطلاقه في القرآن في شأنه تعالى.

٣ ـ الجمل الدالّة على الطباع والشأنيّات، مثل إيراد الصفة أو الفعل في سياق (كان) و(ما كان)، كما قال تعالى[(١)]: ﴿**وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا..**﴾، وقال سبحانه[(٢)]: ﴿**وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾، وقال عزّ من قائل[(٣)]: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ..**﴾، وقال جلّت آلاؤه[(٤)]: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾.

أمورٌ يجب البحث عنها

وهنا عدّة أمورٍ يجب بحثها ..

١ ـ إثبات الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه.

٢ ـ محتوى هذا الضمير بالمقارنة مع الضمير الأخلاقيّ للإنسان.

٣ ـ بيان اشتمال هذا الضمير على الفضل كالعدل.

٤ ـ تفرّع جعل الضمير الأخلاقي في الإنسان على الضمير الأخلاقي للخالق.

---

(١) سورة النساء: ١٤٧.

(٢) سورة النساء: ٩٩.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٠.

(٤) سورة البقرة: ١٤٣.

٥ ـ الفرق بين الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه والضمير الأخلاقيّ لخلقه.

٦ ـ تساؤلات حول مدى انسجام إثبات هذا الضمير مع أقوال الله سبحانه وأفعاله في عالم الوجود.

إثبات الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه

(الأمر الأوّل): في إثبات الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه.

قد عرفت أنّ الدين يثبت لله سبحانه الضمير الأخلاقيّ كما يُثبتُه للإنسان ويجعله نظام التعامل بين الله سبحانه وبين خلقه، وهو حجّة كافية في إثبات الموضوع بعد إثبات حقّانيّة الدين.

على أنّ هذا المبدأ يوافق اقتضاء الفطرة السليمة، ودلالة العقل الواعي، وخلق الإنسان الواجد لهذا الضمير ..

أمّا اقتضاء الفطرة فلأنّ الإنسان بما أُودع في فطرته من الشعور بكائنٍ أعلى يرى أنّ هذا الكائن يتّصف بالعدل بل والفضل والإحسان، فهو غوثٌ لمن استغاث به ومجيرٌ لمن استجاره. على أنّ الضمير الأخلاقيّ نحو كمالٍ للكائن العاقل المختار، وقد تقدّم ترجيح أنّ الفطرة تنزع إلى ثبوت كلّ كمالٍ لله سبحانه.

وأمّا دلالة العقل على ذلك فلأنّ العقل يشهد على قبح ما يستقبحه وحسن ما يستحسنه من كلّ كائنٍ عاقل مختار، فلا فرق في أصل الحسن والقبح بين كائنٍ عاقلٍ وآخر مثله، فكما أنّ الكذب وخُلف الالتزام ومعاقبة المحسن ومكافأة المسيء أمرٌ قبيحٌ من المخلوق العاقل فإنّه كذلك بالنسبة إلى الخالق، فثبوت الضمير لا يختصّ بالإنسان ولا منظِّماً لتعامل الإنسان مع سائر الكائنات فحسب بل هو جارٍ في كلّ كائنٍ عاقلٍ ومختار.

فمن يفترض أنّ للإله أن يفعل كلّ شيءٍ دون حزازةٍ، فهو غير مصيب؛ لأنه إذا كان ينكر قبح أيّ شيءٍ في حقّه ـ ولو كان كذباً وخُلفاً وظلماً ـ فهذا خلاف ما يقضي به الوجدان

الإنسانيّ من أنّ هذه الأمور لا تليق بالإله سبحانه. وإذا كان يجوّز صدور القبيح منه فهو أمرٌ أبعد.

وأمّا دلالة خلق الإنسان على وجود الضمير الأخلاقيّ للإله فلأنّ الإنسان واجد للضمير الأخلاقيّ الذي يحبّ الخير ويكره الشرّ، وهذا بُعد روحيّ غير مادّيّ، لا يمكن أن يخلقه ويُوجده إلّا مَن كان واجداً لهذه الصفة فعلاً، فلا يكفي في خلق مثل هذه الصفة أن يكون الخالق قادراً على إيجاد السنن والقوانين الهندسية والرياضية والذي يمكن أن يقف عليه الإنسان العالم من خلال علم الفيزياء، وهو ما يُعبَّر عنه بـ(إله العلم)، وإنّما الذي يمكن أن يخلق الكائن الأخلاقيّ هو الإله الأخلاقيّ(١). وهذا المعنى يصلح للاستئناس.

إذاً تتطابق الفطرة والعقل والدين على إثبات الضمير الأخلاقيّ للإله القادر، لا بمعنى أنّه لا يستطيع ارتكاب القبيح وترك الحسن، بل بمعنى أنّه ترك ذلك بمشيئته واختياره.

وعليه فإنّ للخالق حدوداً يراعيها مع خلقه، كما أنّ هناك حدوداً يجب أن يراعيها الخلق مع الخالق.

محتوى الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه

(الأمر الثاني): إنّ محتوى الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه يشتمل على قسمين من الحقوق واللياقات، وهو في ذلك كالضمير الأخلاقيّ للبشر، حيث نجد أنّ للإنسان على بني نوعه حقوقاً يلزم عليه رعايتها، كما أنّ للآخر عليه استحقاقات يلزم عليه الوفاء بها،

---

(١) قال فرانسيس كولينز ـ وهو عالم أحيائيّ معاصر ومشهور قد تبنّى الإلحاد أوّلاً ثمّ عدل عنه على أساس مزيد من التحرّي واعتمد على جملة حجج منها الحجّة الأخلاقيّة ـ في كتابه لغة الإله (ص:٣٧): (الحكم وفقاً للمعايير العالية للقانون الأخلاقيّ تقتضي وجود إله مقدّس وخيّر، لا بدّ لهذ الإله أن يجسّد هذا الخير. لا بدّ لهذا الإله أن يمقت الشرّ، وليس هناك مدعاة للشكّ بأنّه عطوف متسامح).

فالأمر في شأن الخالق كذلك، فهناك لياقات تجب رعايتها من الخلق تجاه الله سبحانه ولياقات يلتزمها سبحانه تجاه الخلق ..

حقوق الله سبحانه على خلقه

أمّا **(القسم الأوّل)** فبيانه: أنّ لله سبحانه موقعاً خاصّاً متميّزاً تجاه الكون والكائنات، حيث إنّه إله الخلق وموجده والمنعم عليه، فكلّ هذا المشهد الذي نراه ونعيشه هو من الله سبحانه.

وهذا الأمر بطبيعته يفرض وجود حقٍّ لله سبحانه على كلّ خلقه من أصحاب العقول والضمائر، لما تقدّم من أنّ كلّ كائنين عاقلين ينتظم الأسلوب اللائق للتعامل بينهما من خلال الضمير الأخلاقيّ وما ينطوي عليه من حقوقٍ وواجبات.

ومن ثَمّ يكون من حقّ الله سبحانه على أصحاب العقول والضمائر من خلقه ..

(أوّلاً): أن يتعرّفوا عليه، فلا يصحّ تجاهله.

و**(ثانياً)**: أن يذعنوا به، فلا يصحّ إنكاره وجحوده.

و**(ثالثاً)**: أن يتأدّبوا معه ويوقّروه بالخضوع والإجلال بما يناسب موقع ألوهيّته وعظمته، فلا يصحّ الاستكبار تجاهه وعدم الاعتناء به.

و**(رابعاً)**: أن يتحرّوا عن رسالاته ورسله، فلا يصحّ الإعراض عنها وعنهم.

فهذه المعاني ممّا انطوى عليها الضمير الإلهيّ فيما يتعلّق بحقّه على العباد عرفاناً بحقّه وإذعاناً بجميله، وهي أيضاً مقتضى الضمير الإنسانيّ فيما يليق بالإنسان تجاه الله سبحانه إذا أحسن المرء التأمّل في الموضوع.

تذكير القرآن الكريم بحقّ الله سبحانه على الخلق

ومن ثَمّ تجد القرآن الكريم يثبت استحقاق الله سبحانه لذلك كلّه على العباد على أساس مفاهيم أخلاقيّة كالشكر، ويعتبر الجحود والنكران والتجاهل والشرك مصاديق

للظلم والكفران والتنكّر لحقّه سبحانه، كما قال سبحانه[1]: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

وقال عزّ وجلّ[2]: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

وقال تعالى[3]: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وقال سبحانه[4]: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

وقال عزّ من قائل[5]: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقال جلّ جلاله[6]: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقال تعالى[7]: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

---

(١) سورة الزمر: ٧.

(٢) سورة البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) سورة البقرة: ٢٤٣، ولاحظ سورة يونس: ٦٠، وسورة النمل: ٧٣.

(٤) سورة الأعراف: ١٠.

(٥) سورة النحل: ١٤.

(٦) سورة النحل: ٧٨، ولاحظ سورة السجدة: ٩، وسورة الملك: ٢٣.

(٧) سورة النحل: ١١٤.

وقال سبحانه(١): ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقال عزّ وجلّ(٢): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

وقال سبحانه(٣): ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ* وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

وهكذا نلاحظ أنّ أساس استحقاق الخالق على الخلق أساسٌ أخلاقيٌّ وفطريٌّ يجد الإنسان صدقه بالضمير الأخلاقيّ.

وما ذكرنا هو أساس توصيف الله سبحانه بالكبرياء وما ضاهاها؛ لأنّه تعالى فعلاً كبيرٌ بما هو فوق إمكان إدراك الإنسان، ويليق بالإنسان إجلاله والخضوع له، كما يُعظَّم العلماء والمكتشفون الكبار مع الفرق بينه تعالى وبين أيّ كائنٍ آخر.

السؤال عن انسجام تمسّك الله سبحانه بحقّه مع غناه

وقد يسأل سائلٌ ويقول: أليس الله سبحانه مستغنياً عن خلقه وعبادتهم، فلماذا يتمسّك بالتعامل معه على أساس الآداب واللياقات، ويكره الاعتقاد الخاطئ بوجود

(١) سورة القصص: ٧٣.

(٢) سورة لقمان: ١٢ ـ ١٤.

(٣) سورة إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤.

شركاء له؟

والجواب عن هذا السؤال يظهر ممّا تقدّم؛ وذلك أنّ هذا الأمر قد تفرضه طبيعة موقع الله سبحانه في الكون، فقد ذكرنا أنّ موقعه تعالى هو موقع الإله الموجِد الممدّ القادر المهيمن المبدع لكلّ ما كان وكائنٌ وسيكون في الوجود.

ومن المعقول أن يكون ذلك ممّا يملي على الكائنات المتّصفة بالعقل والضمير حسب سنن وجودها استحضار الله سبحانه كقاعدةٍ للحياة، ولولا ذلك تعيش فراغاً وتقع في الأوهام والخرافات، والخطايا والأخطاء، كما قال تعالى(١): ﴿**قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ**﴾.

وقال سبحانه(٢): ﴿**مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾.

وقال عزّ من قائل(٣): ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾.

وقال جلّت آلاؤه(٤): ﴿**هَا أَنتُمْ هَـؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ**﴾.

وعليه فإنّ من شأن هذه الكائنات أن تتعامل مع الله سبحانه بأدبٍ وتوقيرٍ وخضوعٍ، كما نجد الحال كذلك فيمن يقع في سائر المواقع في الحياة.

مثلاً: نحن نجد أنّ للأب موقعاً خاصّاً في الأسرة، فهذا الموقع لابدّ أن يكون محترماً

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٤.

(٢) سورة فُصّلت: ٤٦.

(٣) سورة الممتحنة: ٦.

(٤) سورة محمّد: ٣٨.

في داخل الأسرة لصلاح الأسرة نفسها، ومهما كان الأب متواضعاً في نفسه فإنّه لا يصحّ له أن يرفع اليد عن مستوىً مقبولٍ من التقدير لموقعه، فمن الحكمة أن يتمسّك بهذا المستوى، ولا يتقبّل نسيان موقعه هذا وتجاهله من قبل سائر أفراد الأسرة؛ فإنّ ذلك جزءٌ من مقوّمات الصلاح الأسريّ.

وكذلك الحال في رئيس الدولة، فإنّ له موقعاً ينبغي تمسّكه به واحترام الناس إيّاه مهما كان متواضعاً، فالتمسّك بهذا الموقع من قِبَله واحترام سائر الناس لهذا الموقع وآدابه وصلاحيّاته من جملة مقتضيات الصلاح العامّ، وذلك أمرٌ واضح.

وبناءً على ذلك فإنّ من شأن الإله أن يكون في موقع الكبرياء والعظمة والجلال بين الكائنات، ومن شأنه أن تقدّر الكائنات العاقلة موقعه كإله، فيتعرّفوا عليه ويقرّوا به ويخضعوا له ويشكروه على إنعامه، ويعلموا أنّه مالك هذا الخلق وصاحب هذا المشهد.

وجوه لطف الله سبحانه بالخلق

هذا، على أنّنا نجد أنّ الله سبحانه يتعامل مع الخلق بلطفٍ كبير، ومن مظاهر لطفه..

١ ـ عنايته سبحانه بدعوة الناس إلى الإيمان والشكر حتّى كأنّه سبحانه ينتفع بذلك منهم وهو الغنيّ الحميد، كما قال سبحانه[1]: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾.

ومن مظاهر ذلك: ما يلاحظه الناظر في القرآن الكريم في محاجّة المشركين من الحِلم والرِفق والانتظار، وهذا على الرغم من وضوح الحجّة عليهم، حيث إنّهم كانوا يعبدون مع الله أوثاناً من البداهة أنّها لا تضرّ ولا تنفع، فكانت الحجّة قائمةً عليهم من دون شكّ. وكذلك الحال مع المنافقين الذين كانوا يزيدون على ذلك بإظهار التسليم ويستعملون

---

(١) سورة الزمر: ٧.

أساليب عديدة لتضعيف إيمان الناس، بإثارة الشبهات وإظهار الإيمان في وجه النهار والكفر في آخره، واتّخاذ مسجدٍ للإضرار بالمسلمين والتفريق بينهم، فلو شاء الله سبحانه لأفناهم على هذا التعنّت والجحود والكفران، ولكنّه تعالى تعامل معهم بالحِلم والانتظار والتوضيح عسى أن يذعنوا بالحقّ فيشملهم العفو والمغفرة.

٢ ـ تعامله مع طاعة المطيعين، حيث عبّر عنها بالاقتراض والتزم تجاهها بالشكر، كما قال سبحانه[١]: ﴿**مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا..**﴾، وقال تعالى[٢]: ﴿**مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾، وقال عزّ من قائل[٣]: ﴿**وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**﴾، وقال جلّت آلاؤه[٤]: ﴿**وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**﴾، وقال سبحانه[٥]: ﴿**لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾، وقال تعالى[٦]: ﴿**إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا**﴾.

٣ ـ ومن لطيف أفعاله سبحانه أنّه إذا وعد التزم الوفاء، وإذا أوعد بالعقوبة لم يُبتّ بتنفيذها، كما أوعد كثيراً من أصحاب المعاصي، ولكنّه قال في آيةٍ أخرى[٧]: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾.

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٥، وسورة الحديد: ١١.

(٢) سورة النساء: ١٤٧.

(٣) سورة البقرة: ١٥٨.

(٤) سورة الإسراء: ١٩.

(٥) سورة فاطر: ٣٠.

(٦) سورة الإنسان: ٢٢.

(٧) سورة النساء: ٤٨.

وفي كلامٍ لأمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال[١]: ((فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ الْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَة، وَمِنْ كَرَى الْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقَظَة، وَكُنْ لله مُطِيعاً، وَبِذِكْرِهِ آنِساً، وَتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عنْهُ إِلَى غَيْرِهِ.

فَتَعَالَى مِنْ قَوِيّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيف مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مَتَقَلِّبٌ، فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرِفَ عَيْن فِي نِعْمَة يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَة يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّة يَصْرِفُهَا عَنْكَ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ! وَأَيْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ هذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الأَخْلاَقِ، وَمَسَاوِئِ الأَعْمَالِ)).

وفي بعض أدعية شهر رمضان المرويّة عن أهل البيت عليهم السلام[٢] ـ ويُعرَف بدعاء الافتتاح ـ: ((فلم أرَ مولىً كريماً أصبر على عبدٍ لئيمٍ منك عليَّ، يا ربّ إنّك تدعوني فأولّي عنك، وتتحبّب إليَّ فأتبغّض إليك، وتتودّد إليَّ فلا أقبل منك، كأنّ ليَ التطوّل عليك، ولم يمنعك ذلك من الرحمة لي والإحسان إليَّ والتفضّل عليَّ بجودك وكرمك)).

وهكذا يجد الإنسان تعامل الله سبحانه مع خلقه الجاحدين له والعصاة لأوامره تعمّداً تعاملاً حليماً.

وهناك أسئلة تتّجه في الموضوع سوف نتعرّض لها لاحقاً.

إذاً ظهر ممّا ذكرنا أنّ هناك حقوقاً أخلاقيّة لله سبحانه على خلقه، من الحكمة تمسّكه تعالى بتلك الحقوق ودعوة الناس إلى الإيفاء بها.

---

(١) نهج البلاغة ص:٣٤٤ـ٣٤٥.

(٢) مصباح المتهجّد للشيخ الطوسيّ ص:٥٧٩.

قيم الله سبحانه في التعامل مع خلقه

وأمّا (**القسم الثاني**) ـ من محتوى الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه ـ فهو ما يتعلّق بتعامله مع خلقه، والمعروف في شأن محتوى الضمير الأخلاقيّ للإنسان أنّه على نوعين ..

(**الأوّل**): إلزاميّ، يقبح الإخلال به، مثل العدل والصدق والوفاء. ونعبّر عنه ـ تغليباً[1] ـ بمستوى العدل، وقد يُخصّ باسم القانون.

(**الثاني**): ما ليس بإلزاميّ، فيكون فعله حسناً ولا يكون تركه قبيحاً، مثل كثير من وجوه الإحسان إلى الغير، ونعبّر عنه بمستوى الفضل، وقد يُعبَّر عنه بالأخلاق.

ويمهّد لمراعاة هذه القواعد الأخلاقيّة في الإنسان عدّة صفات نفسيّة من قبيل الرحمة والحلم والمحبّة والحزم وغيرها.

هذا، وقد جاء في الرسالات التي بعثها الله سبحانه إلى الإنسان أنّه سبحانه وتعالى يتّصف بالصفات الممهّدة للعمل الفاضل والمبعّدة عن العمل الخاطئ، فقد ورد توصيفه بالأوصاف التالية (اللطيف، الرحيم، الرحمن، الودود، الرؤوف، الحليم، الكريم) وما ضاهاها.

كما ورد في تلك الرسالات التأكيد على اتّصاف الله سبحانه بجميع القيم الأخلاقيّة التي أودعها في ضمائر خلقه غير صفة العفاف التي لا محلّ لها في شأنه سبحانه وتعالى، ومن هذه القيم ..

١ ـ **تجنّب الظلم**، فقد تكرّر أنّه سبحانه لا يظلم عباده كلّما ذُكر شيء كان في معرض تداعي عدم تناسب الفعل الإلهيّ مع العدل، وأكثر ما جاء ذلك في نفي كون الجزاء

---

(١) وجه التغليب أنّ بعضها قد لا يصدق عليه العدل كما هو الحال في الصدق مثلاً.

الأخرويّ ظلماً، كما قال تعالى[١]: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقال سبحانه[٢]: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقال عزّ وجلّ[٣]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

وقال جلّ جلاله[٤]: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

٢ ـ **الإحسان إلى الخلق**، وتشير إلى هذه الصفة ـ فضلاً عمّا ورد كثيراً من محبّته تعالى للمحسنين ـ ما جاء توصيفه به من الرحمة والرأفة والودّ والكرم واللطف والمغفرة والحلم. وقد ورد الاهتمام باتّصافه تعالى بالرحمة للخلق حتّى كان ذلك أدباً مرعيّاً في مفتتح كلّ سورة[٥].

والإحسان وصف جامع لخصال وأفعال عديدة ..

أ ـ أصل خلق الإنسان وتسخير الكون والكائنات الأخرى له.

ب ـ هدايته الناس إلى الحقائق الكبرى في الحياة حتّى يتهيّؤوا لها ويعتبروا بها.

---

(١) سورة البقرة: ٢٨١، ولاحظ سورة آل عمران: ٢٥، ١٦١.

(٢) سورة النساء: ٤٠.

(٣) سورة النساء: ٤٩.

(٤) سورة النساء: ١٢٤.

(٥) قيل: بكون البسملة جزءاً من السور حتّى في غير الفاتحة، ويُستثنى من ذلك سورة التوبة، بناءً على المشهور من أنّها سورة مستقلّة وليست تتمّةً للأنفال.

ج ـ استجابته لدعاء الإنسان، قال سبحانه[١]: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، وقال تعالى[٢]: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، وقال عزّ من قائل[٣]: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

د ـ تشويق الناس إلى الخير والفضيلة وترغيبهم عن الشرّ والرذيلة، حتّى إنّه سبحانه وتعالى جعل الإحسان إلى الخلق مستوجباً لإحسانه، ونبّه الناس على أنّ عليهم أن يتّصفوا تجاه الخلق كما يحبّون أن يكون الخالق تجاههم، كما قال سبحانه[٤]: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾، وقال تعالى[٥]: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال عزّ من قائل[٦]: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، وقال جلّت آلاؤه[٧]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) سورة النحل: ٦٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٥.

(٣) سورة الأنعام: ٦٣.

(٤) سورة القصص: ٧٧.

(٥) سورة النور: ٢٢.

(٦) سورة النساء: ١٤٩.

(٧) سورة التغابن: ١٤.

هـ ـ مغفرته الذنب لمن تاب عنه وتجاوزه عن خطيئته، كما قال سبحانه[١]: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾، وقال تعالى[٢]: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾.

و ـ تغليب الحسنات على السيّئات ومغفرته اللمم من الذنوب ممّن تجنّب كبائر الذنوب، كما قال سبحانه[٣]: ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾، وقال تعالى[٤]: ﴿**وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾، وقال عزّ من قائل[٥]: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا**﴾.

٣ ـ الصدق، قال تعالى[٦]: ﴿**قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾، وقال سبحانه[٧]: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾.

ومن هنا وُصف القرآن الكريم بالصدق، كما قال سبحانه[٨]: ﴿**وَالَّذِي جَاءَ**

---

(١) سورة الزمر: ٥٣.

(٢) سورة النساء: ١١٠.

(٣) سورة الفرقان: ٧٠.

(٤) سورة النجم: ٣١ ـ ٣٢.

(٥) سورة النساء: ٣١.

(٦) سورة آل عمران: ٩٥.

(٧) سورة الأنعام: ١١٥.

(٨) سورة الزمر: ٣٣.

بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

ومن ثَمّ كانت رسائل الله سبحانه يُصدّق بعضها بعضاً، كما قال تعالى(١): ﴿**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾، وقال عزّ وجلّ(٢): ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا**﴾.

٤ ـ **الوفاء بالوعد والالتزام**، قال تعالى(٣): ﴿**لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ**﴾، وقال سبحانه(٤): ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾.

ولا يشمل الوعد الذي يجب الوفاء به الوعيد بالعقاب والمجازاة وإن كان عدلاً؛ فإنّ عدم العقاب لا يكون من خلاف الوعد الذميم، وسيأتي توضيح ذلك.

٥ ـ **الشكر والتقدير**، والمراد بذلك أنّ الخلق إذا جاءوا بعملٍ فيه أدب وتقدير لله سبحانه من ثناء عليه وإطاعة لأمره واستجابة لرغبته؛ فإنّ الله سبحانه سوف يقابل صنيعهم هذا بالشكر الكثير والجزاء الوفير، وهذا بالرغم من أنّ الإنسان وما يصنعه كلّه لله سبحانه، فهو الخالق المنعم المتفضّل المحسن، بل تيسيره الطاعة له والتأدبّ معه بنفسه نعمة منه تستوجب شكراً. ولكن مع ذلك فإنّ الإنسان ما دام أنّه عمل ما عمله باختياره استجابةً لأمر الله سبحانه فإنّه يستوجب في مقياس الخُلُق الإلهيّ شكر الله سبحانه.

---

(١) سورة فاطر: ٣١.

(٢) سورة النساء: ١٢٢.

(٣) سورة الزمر: ٢٠، ولاحظ أيضاً سورة آل عمران: ٩، ١٩٤ وسورة الرعد: ٣١.

(٤) سورة البقرة: ٤٠.

وقد تكرّر وصف شكره تعالى للعباد، كما قال سبحانه[١]: ﴿**وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**﴾، بل تكرّر توصيفه سبحانه بـ(الشاكر)، كما مرّ في بعض الآيات التي تضمّنت ذلك.

وفي مواضع أخرى وُصف سبحانه بأنّه شكور وهو صيغة مبالغة في الشكر، فيعني أنّه يشكر من عمل له شكراً كثيراً، وذلك بمضاعفة الجزاء له بعشرة أضعاف أو ما يزيد عليها، قال تعالى[٢]: ﴿**وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾، وقال عزّ وجلّ[٣]: ﴿**إِن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ**﴾، وقال سبحانه[٤]: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**﴾.

وبذلك يظهر الجواب عن سؤال يخطر في ذهن فريق من الناس، وهو أنّه لماذا لا يقدّر الله سبحانه بحسب الدين من أسدى خدمةً كبيرةً إلى الإنسانيّة من أهل العلم، بمثل اكتشاف الكهرباء والأجهزة النافعة؛ بينما يجازي من صلّى أو تصدّق قليلاً بالجزاء الجميل يوم القيامة.

وجه الجواب: أنّ مَن عمل عملاً لله تبارك وتعالى فإنّه يستوجب ـ بحسب الخُلُق الإلهيّ ـ شكراً من الله سبحانه، ومَن عمل عملاً بدافع دنيويّ مثل الرغبة الذاتيّة في العلم، أو استيجاب الثناء والتقدير من الناس ترتّب عليه ذلك بحسب سنن الحياة الدنيا، ولم يكن بمنزلة الأوّل.

٦ ـ **التزام العدل بين الخلق**، والمراد بذلك أنّه تعالى لن يفضّل أحداً على أحدٍ اعتباطاً

---

(١) سورة الإسراء: ١٩.

(٢) سورة الشورى: ٢٣.

(٣) سورة التغابن: ١٧.

(٤) سورة يونس: ٢٦.

وإنّما يقدّر كلّ واحدٍ بقدره، فالله سبحانه لا يميّز أحداً بفضلٍ منه إلّا تقديراً لامتيازٍ فيه، كما قال تعالى[١]: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[٢].

٧ ـ **الحياء**، وقد ورد توصيفه في بعض الأحاديث والآثار[٣]، والمراد به أنّه يتجنّب الفحش من القول ويكنّي عن الأشياء الحرجة التي لا يحسن التصريح بها، كما يلاحَظ ذلك في القرآن الكريم. وقد يُطلَق[٤] على مراعاته تعالى للياقات الكرم والجود.

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) إن قيل: إنّ التفضيل في حدِّ نفسه ليس ظلماً؛ لأنّه ليس تنقيصاً لاستحقاق الآخر بل زيادة عطاء للأوّل، ومَن خصّ أحد المتماثلين بعطاء من عنده كان متفضّلاً على المخصوص غير ظالمٍ للآخر، كتخصيص الأب أحد أولاده بعطاءٍ دون مزية على غيره.

قيل: **أولاً**: إن مقتضيات العدل قد تختلف باختلاف الفاعل وما يليق به، وعليه قد يكون اللائق بالله سبحانه في موقعه في الوجود، ووحدة نسبته إلى الخلق أن يراعي تناسباً فيما يتفضل به على الخلق.

و**ثانياً**: إن ذلك إن قُدِّر عدم مخالفته للعدل ـ بما له من معنى يقابل الظلم والتعسف ـ لكنه لا يلائم صفة الحكمة التي تقتضي بناء الأمور على ميزان متناسق وعامٍّ، فلاحظ .

(٣) عن النبيّ ﷺ في حديثٍ أنّه قال: ((إنّ الله حييّ يحبّ الحياء، وستّير يحبّ الستر، فإذا اغتسل أحدكم فليتوارَ)) المصنَّف لعبد الرزّاق الصنعاني (ج:١ ص:٢٨٨)، وعن ابن عبّاس قال: ((الدخول والتغشّي والإفضاء والمباشرة والرفث واللمس، هذا الجماع، غير أنّ الله حييّ كريم، يكنّي بما شاء عمّا شاء)) المصنَّف (ج:٦ ص:٢٧٧)، وأرسل مثله في الوافي ج:٦ ص:٢٤٦.

(٤) ورد عن سلمان الفارسيّ عن النبيّ ﷺ قال: ((إنّ الله حييّ كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردّهما صفراً خائبتين)) سنن الترمذيّ (ج:٥ ص:٢١٧)، ولاحظ المستدرك للحاكم (ج:١ ص:٤٩٧)، وذُكر في ذكرى الشيعة مرسلاً (ج:٣ ص:٤٥٥).

وجاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه لمّا حلف من ادّعى عليه عند المنصور أنّه تُجبى له الأموال قال: (والله الذي لا إله إلّا هو، الطالب الغالب، الحيّ القيّوم)، فقال له جعفر عليه السلام: ((لا تعجل في

٨ ـ **الحزم في مقتضيات الصلاح وإجراء العدل،** فهذه صفة ضروريّة في كلّ من يقع في موضع الصدارة والرئاسة؛ إذ لا تستقيم الأمور من دون ذلك، فلا يَسَع لكلّ من تولّى أمر جماعة إلا أن يتّصف بالحزم الحكيم سواء كان أباً أو مديراً أو رئيساً أو في أيّ موضع قياديّ آخر.

ولعلّ من مصاديق ذلك قوله سبحانه[١]: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾. وقوله تعالى[٢]: ﴿**وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾. وقوله عزّ من قائل[٣]: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾.

هذه جملةٌ من الخصال الفاضلة والقيم النبيلة التي يشتمل عليها الضمير الإلهيّ بحسب نصوص الرسالات الإلهيّة.

اشتمال الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه على الفضل

(الأمر الثالث): في توضيح انطواء الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه على الفضل والإحسان.

قد ذكرنا أنّ الضمير الأخلاقيّ يشتمل على نوعين من القضايا ..

قضايا إلزاميّة، وهي قضايا يلزم مراعاتها ويقبح الإخلال بها. وهو ما نعبّر عنه ـ

يمينك، فإنّي أنا أستحلف))، قال المنصور: وما أنكرت من هذه اليمين؟ قال: ((إنّ الله حييّ كريم، يستحيي من عبده إذا أثنى عليه أن يعاجله بالعقوبة لمدحه له، ولكن قل يا أيّها الرجل: أبرأ إلى الله من حوله وقوّته وألجأ إلى حولي وقوّتي، إنّي لصادقٌ برٌّ فيما أقول..)) مهج الدعوات لابن طاووس كما عنه في مستدرك الوسائل (ج:١٦ ص:٧٢).

(١) سورة المنافقون: ٦.

(٢) سورة الصفّ: ٧.

(٣) سورة الرعد: ١١.

تغليباً ـ بـ(العدل).

وقضايا ترجيحيّة غير ملزمة، وهي قضايا يحسن مراعاتها ولا يقبح عدم العمل على وفقها، وهو ما نعبّر عنه بـ(الفضل).

والفارق بينهما أمرٌ محسوسٌ يشعر به الإنسان بالمراجعة إلى وجدانه، فالعدل ما يكون الإخلال به موجباً لنوعٍ من الحزازة في الضمير الأخلاقيّ، ويستوجب تاركه العتاب والملامة والعقاب. وأمّا الفضل فهو زيادة في الخير والإحسان من غير أن يكون تركه قبيحاً، ويستوجب فاعله الثناء والحمد ولا يستوجب تاركه التقريع والملامة.

وقد ذكرنا أنّ الله سبحانه ـ بحسب ما جاء في رسالاته إلى الخلق في التعريف بنفسه ـ كما يتّصف بالعدل فإنّه يتّصف بالفضل أيضاً.

ويدلّ على ذلك المنابع الثلاثة المتقدّمة لإثبات وجود الله وصفاته ..

أمّا الفطرة فلأنّ الإنسان يجد ـ بما زُرع من الشعور بالإله في باطنه ـ أنّ الإله يتفضّل على الإنسان ويستجيب لدعائه فيما تسمح به مقاديره في هذه الحياة؛ ومن ثَمّ يلتجئ الإنسان دائماً في كشف الضرّ ورفع العسر إلى الإله.

وأمّا الخلق فلأنّ هناك من وجوه الإنعام على الإنسان في الإمكانات الميسّرة له المتمثّلة في خلق السماوات والأرض والكائنات ما لم يكن إيجاده واجباً على الله سبحانه.

وأمّا الرسالات فقد تضمّنت إثبات الفضل العظيم لله سبحانه كما قال تعالى[1]: ﴿**وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾، كما أنّها وصفت الله سبحانه بصفات تنتمي إلى الفضل مثل الرحمة والمودّة والمغفرة والرأفة والستر وغيرها.

يُضاف إلى ذلك: أنّ جملةً من القيم المتقدّمة تشتمل على الفضل، فالإحسان ـ مثلاً ـ

---

(١) سورة البقرة: ١٠٥، وسورة آل عمران: ٧٤، وسورة الحديد: ٢٩، وسورة الجمعة: ٤.

إذا تأمّلناه في شأن الإنسان فهو على ضربين: إحسانٍ لازمٍ لأخيه الإنسان، مثل إسعاف المضطرّين والغرقى وما إلى ذلك. وإحسانٍ راجحٍ، كالتبرّع للفقراء والمعوزين وإعانة الضعفاء والمرضى.

وقد يكون الحال في شأن الله سبحانه كذلك، فيكون بعض الإحسان منه سبحانه من شؤون عدله ويكون بعضه الآخر تفضّلاً محضاً ولا يكون تركه إخلالاً بالعدل، ولكنّه تعالى تفضّل على خلقه بذلك.

ومن أمثلة فضل الله سبحانه بحسب النصوص القرآنيّة مجازاة فاعل الحسنة بأضعافها، كما قال سبحانه(١): ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وقال عزّ من قائل(٢): ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

نكات في شأن فضل الله سبحانه

وينبغي الالتفات في شأن فضل الله سبحانه إلى نكات ..

(النكتة الأولى): إنّ لفضل الله سبحانه نظاماً وقوانين كما هو الحال في عدله تعالى، فله ميزان مطّرد وأساسٌ عامّ، وليس تفضُّلُه أمراً اعتباطيّاً، فلا يجوز على الله سبحانه أن يتفضّل على بعض خلقه بشيءٍ ويمنع آخر عن مثله مع تماثلهما تماثلاً تامّاً. وهذا من مقتضيات حكمته ونظمه سبحانه.

(النكتة الثانية): إنّ فضل الله سبحانه وإن لم يلزم صدوره منه، إلّا أنّه سبحانه ملتزم بالتفضّل بما تسعه الحكمة ويقتضيه الكرم، كما قال سبحانه(٣): ﴿كَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ ومن ثَمّ كانت صفات الفضل من جملة نعوته سبحانه، فهو تعالى (رحيم، كريم، جواد)

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٥.

(٣) سورة الأنعام: ١٢.

وقد يؤكّد ذلك بالمجيء بـ(كان)، كقوله تعالى[١]: ﴿**كَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾.

(**النكتة الثالثة**): إنّ الله سبحانه وإن كان ملتزماً على نفسه التعامل بالفضل وكان تعامله جارياً على أساس مطّرد، إلّا أنّ الإنسان لا يعلم بتفاصيل ذلك بطبيعة الحال؛ ومن ثَمّ يتعذّر عليه أن يحرز أنّ هذا مورد تفضّل الله سبحانه بنحوٍ جازم؛ ولأجل هذا لا مجال للبتّ بالفضل الاقتراحيّ على الله سبحانه وهو ما يتراءى للإنسان كونه من الفضل المناسب واللائق بالله سبحانه كشفاء هذا المريض وردّ هذا المفقود، نعم قد يحتجّ الإنسان في مناجاته مع الله سبحانه بفضله ـ كما يرد في الأدعية المأثورة عن النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ـ رجاءً في المزيد منه، ولكنّه من قبيل احتجاج المحتاج على الكريم بكرمه، وهو بطبيعته مبنيّ على التشبّث والتوسّع، فلا تمسّك المحتاج بكرم الكريم بالذي يبتني على الجزم بأنّ الاستجابة له لازمة لكرم الكريم، ولا استجابة الكريم تبتني على قيام الحجّة عليه بهذا الاحتجاج، بل المحتاج متمسّك بالأمل والكريم يعمل وفق قواعد الكرم، حيث قد يكون نفس هذا الأمل محقّقاً لموضوع الكرم وفق حدوده الحكيمة.

تفرّع جعل الضمير الأخلاقيّ في الإنسان على الضمير الأخلاقيّ للخالق

(**الأمر الرابع**): إنّ من تفريعات الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه أنّه قد جعل في العقلاء من خلقه ضميراً أخلاقيّاً ليكون هو القانون الحاكم في حياتهم[٢]، كما قال سبحانه[٣]: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾.

---

(١) سورة النساء: ١٤٧.

(٢) هذا المعنى ينطبق في شأن الملائكة والإنس والجنّ، إلّا أنّ الملائكة قد خُلقوا على نظام لا يتعرّضون فيه لإغراءات طبيعيّة تكون مظنّةً لمخالفة هذا القانون، ولكنّ الإنس والجنّ يتعرّضون بحسب طبيعة خلقتهم وغرائزهم لمثل هذه الإغراءات.

(٣) سورة الشمس: ٧ ـ ٨.

وقد كان اتّصاف الإنسان بالضمير الأخلاقيّ ـ كما لاحظ عدد من أهل العلم[١] ـ نحو دلالةٍ على وجود خالقٍ يحمل مثل هذا الضمير، وينفي احتماليّة وجود الإنسان في أثر عوامل طبيعيّة بحتة من قبيل ما تصفه نظريّة التطوّر الأحيائيّ؛ لأنّ الضمير حالةٌ معنويّةٌ روحانيّةٌ خاصّة، ولا يمكن أن يكون نتاجاً لتغييرات مادّيّة (كيميائيّة وفيزيائيّة) بحتة.

فالله سبحانه هو الذي نظّم القوانين الأخلاقيّة وأودعها في داخل الإنسان على شكل مشاعر وهواجس، فالضمير خلقة إلهيّة رائعة.

وعليه فمن خلال إيداع الضمير في داخل الإنسان اختلفت أفعال الإنسان عن أفعال الحيوانات واكتسبت قيمةً أخلاقيّةً إيجابيّةً وسلبيّةً وصارت محلًّا للتحسين والتقبيح.

وبذلك كان هذا الضمير من جهةٍ هو الجانب المشترك الذي يتمّ اعتماده في التعامل بين الخلق وبين الله سبحانه لاتّصاف الطرفين بهذا الضمير، كما كان هو القانون النافذ في شأن سلوكيّات الإنسان وتعامله مع بني نوعه ومع سائر الأشياء.

وتفرّع على ذلك أنّ الله سبحانه كما أحبّ لنفسه الأفعال الفاضلة وكره أضدادها كذلك أحبّ صدور الأفعال الفاضلة من الإنسان كالعدل والإحسان وكره الأفعال الذميمة كالفواحش والمنكرات كما قال تعالى[٢]: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾.

وبذلك كان الإنسان المستجيب للضمير محلّ محبّة الله سبحانه، دون الآخر المعرض

---

(١) منهم الكاتب الايرلنديّ لويس (١٨٩٨ ـ ١٩٦٣هـ) نقلاً عن فرانسيس كولنز في كتابه لغة الإله (ص:٢٧ وما بعدها)، حيث ذكر أنّه كان ملحداً.، وقال كولنز ـ وهو أيضاً كان ملحداً ـ: (أكثر حجّة شدّت انتباهي وحطّمت أفكاري عن العلم والإيمان من أساسها متضمّنة في الفصل الأوّل من كتاب (لويس)، الصحّة والخطأ كمدخلٍ لمعنى الكون).

(٢) سورة النحل: ٩٠.

عن نداء الضمير؛ ومن ثَمّ جاء في القرآن الكريم أنّه سبحانه يحبّ المحسنين والتوّابين والمتّقين والصابرين والمتوكّلين والمقسطين والمطَّهّرين، كما جاء أنّه لا يحبّ المعتدين والظالمين والكافرين والمفسدين والمسرفين والخائنين والمتكبّرين، وكذلك لا يحبّ كلّ كفّارٍ أثيم ومختالٍ فخور وخوّانٍ أثيم أو كفور.

إذاً كانت التشريعات في حقّ الإنسان تمثّلاً للضمير الإلهيّ من العدل والصدق والوفاء والإحسان والإنصاف وأمثالها.

الفرق بين الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه ولخلقه

(الأمر الخامس): في الفرق بين الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه والضمير الأخلاقيّ لخلقه.

يشترك الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه مع الضمير الأخلاقيّ الذي أودعه في نفوس خلقه العقلاء في أصول القيم الأخلاقيّة، كالصدق والوفاء والإحسان وغير ذلك مما تقدّم بيانه.

ولكن مع ذلك فإنّ هناك تفاوتاً في اللياقات في جملةٍ من الموارد يفرضه اختلاف ذات الله سبحانه وموقعه في الوجود بالمقارنة مع خلقه.

وهذا التفاوت يمكن أن يقع على وجهين ..

(الأوّل): إنّه قد يكون بعض اللياقات في شأن الخلق على وجه المرجوحيّة غير البالغة حدّ القبح المحظور، ولكنّه في شأن الخالق يكون أمراً قبيحاً وغير لائق.

مثلاً: قد ذهب بعض الفقهاء إلى أنّ خلف الوعد من الإنسان مكروه وليس محظوراً، ولكن لا يجوز ذلك على الله سبحانه؛ ومن ثَمّ تكرّر في القرآن الكريم قوله

سبحانه[1]: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، هذا مع مزيد بحثٍ في هذا المثال.

(**الثاني**): إنّ بعض اللياقات في شأن الخلق لا ترد في شأن الله سبحانه، فإذا رأى المرء إنساناً يحتاج إلى الإعانة الاضطراريّة لإنقاذ حياته وجبت عليه مساعدته إذا لم يكن حرجيّاً أو ضرريّاً عليه، ولكن لا يجب على الله تبارك وتعالى أن يفعل مثل ذلك؛ لأنّه سبحانه خلق الكون على نظام الأسباب والمسبّبات حسب الحكمة التي قدّرها، وهذا النظام لا يناسب التدخّل الخارق منه سبحانه كلّما عرض هناك عوز وطارئ من قبيل المرض والفقر والظلم والمظاهر المنتمية إليها مثل النزاعات والحروب، وسيأتي مزيد إيضاح لذلك.

تساؤلات والتباسات حول الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه

(**الأمر السادس**): في تساؤلات والتباسات حول الضمير الأخلاقيّ الإلهيّ.

قد تقدّم أنّ الدين تضمّن إثبات الضمير الأخلاقيّ للخالق كأحد أصول تعاليم الدين ومقوّمات شخصيّة الخالق.

ولكن هناك وجوه قد يُظَنّ منها خلاف ذلك، يُحتجّ بها طوراً على أنّ الله سبحانه هو فوق القانون، وطوراً على انتقاض ما سبق تقريره من إثبات الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه وتعالى، ممّا يقتضي توضيح الأمر فيها ورفع الالتباس بشأنها. وهذه الوجوه ..

ادّعاء جواز كلّ شيءٍ على الله سبحانه ونقده

(**الوجه الأوّل**): ادّعاء أنّ الضمير الإنسانيّ يقضي بأنّ الله سبحانه هو فوق القانون والتحديدات القانونيّة؛ لأنّه سبحانه هو الخالق للأشياء، فيحقّ له أن يفعل بها ما يشاء، فكلّ ما يفعله فهو عدل، ولا يُستقبَح منه تعالى أيّ عمل، وما جاء في النصوص القرآنيّة من أنّه سبحانه يفعل كذا ولا يفعل كذا فإنّما هو التزامات منه تعالى، وليس شيءٌ منها مبنيّاً على

---

(١) سورة آل عمران: ٩، وسورة الرعد: ٣١.

أنّه لا يجوز عليه سبحانه ذلك.

ويلاحَظ عليه: أنّ ما ذُكر من تجويز كلّ شيءٍ على الله سبحانه مخالف للوجدان وللقرآن الكريم ..

أمّا مخالفته للوجدان فإنّنا نجد من أنفسنا أنّه لا يليق بالله سبحانه أن يوعد ثمّ يخلف الميعاد، أو أن يحمّل الإنسان ما لا يطيق، أو أن يعاقب على عدم الطاعة مَن كان جاهلاً بالحكم عن قصور لا عن تقصير، إلى غير ذلك من الأفعال.

وأمّا مخالفته للقرآن الكريم فلأنّ الآيات القرآنيّة واضحةٌ في أنّ هناك أموراً يجلّ الخالق عنها ولو فعلها لكان ظلماً؛ ومن ثَمّ ترى أنّه سبحانه يعلّل عدم كون ما يلقاه الإنسان في القيامة ظلماً بأنّها نتاج أعمال الإنسان وتصرّفاته، كما قال تعالى[1]: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ* وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾.

وقال سبحانه[2]: ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾.

وينبّه على ذلك أنّ القرآن الكريم يذكر أنّ جزاء السيّئة سيّئةٌ مثلها دون ما يزيد عليها وجزاء الحسنة حسنةٌ مثلها وزيادة عليها بعشر أمثالها، حيث يشير بذلك إلى أنّه لو زِيد جزاء السيّئة على حدٍّ ما لكان ظلماً، ولو لم يفِ الله سبحانه بأيّ جزاءٍ للحسنة ـ بعد الوعد به وتقصّده من الفاعل ـ لكان خلفاً، قال تعالى[3]: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ**

(١) سورة الأحقاف: ١٨ ـ ١٩.

(٢) سورة الكهف: ٤٩.

(٣) سورة الأنعام: ١٦٠.

أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وقال سبحانه(١): ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا**﴾.

كما أنّه سبحانه يشير إلى صفات وأمور بصيغة تنبئ عن أنّها لا تليق بالله تبارك وتعالى، مثل صيغة: (وما كان)، كقوله تعالى(٢): ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾، وقوله سبحانه بعد ذكر مصير الأقوام الهالكين(٣): ﴿**أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾، وقوله عزّ من قائل(٤): ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ**﴾.

والحاصل: أنّ الآيات القرآنيّة النافية لصدور الظلم من الله سبحانه تعطي أنّ هناك ما يكون ظلماً وإن صدر من الخالق، ولا تنتفي صفة الظلم عن التصرّف لمجرّد صدوره منه تعالى. فللظلم في حقّه تعالى موضوع، ولكنّه منتفٍ بإعراضه عنه وليس لعدم تصوّر كون أيّ شيءٍ منه ظلماً.

إذاً لا ينبغي الشكّ في أنّ من الخطأ القول بأنّ كون الله سبحانه هو الخالق الموجد للكائنات يوجب أن يكون أيّ تعاملٍ له مع الكائنات المتّصفة بالعقل والضمير تعاملاً جائزاً عليه سبحانه؛ لأن الإله هو فوق القوانين والأخلاق.

فالقرآن الكريم يعلّمنا بشكلٍ واضحٍ نفس ما تقضي به الفطرة الإنسانيّة من أنّ هناك حدوداً أخلاقيّة مرعيّة من قبل الله سبحانه، وذلك كمالٌ للإله وليس نقصاً له.

ومن أهل العلم من ينطلق في تجويز كلّ شيء من الله تعالى أنّه لا يصحّ أن يقول

---

(١) سورة مريم: ٦٠.

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

(٣) سورة التوبة: ٧٠.

(٤) سورة التوبة: ١١٥.

الإنسان إنّه يجب على الله سبحانه أن يفعل كذا أو يترك كذا، فالله سبحانه فوق أن يوجَب عليه شيء أو يُمنع من شيء، وقد قال عزّ من قائل[1]: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾.

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّه ربّما تكون الحزازة التي يجدها الإنسان بالتعبير بالوجوب والفرض والمنع في شأن الله سبحانه ناشئة عن ما تعطيه هذه التعابير من إيحاءات إعمال القوّة على من يجب عليه، ومن المعلوم أنّ الله سبحانه هو فوق أن يُفرَض عليه شيء أو يُمنَع من شيء، إذ لا قوّة فوقه، بل لا قوّة إلّا قوّته، فكلّ قوّةٍ هي مستمَدّةٌ منه، ومن ثَمّ نجد أنّنا إذا استعملنا في حقّه تعالى تعابير مثل (ينبغي، ولا ينبغي) لم يكن فيه حزازة، فيُعلم أنّ التعبير بالإيجاب والفرض ونحوهما غير لائق؛ لما فيه من إيحاءات سلبيّة، لا أصل المعنى الذي يؤدّيه، مثل (ينبغي) و(لا ينبغي).

وأمّا قوله تعالى: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾، فالمراد به أنّه سبحانه لا يحاسَب على ما يعمله، وهذا ممّا لا شكّ فيه على كلّ حال، إذ لا قوّة فوقه تعالى لتحاسبه، كما أنّه عزّ شأنه ليس مظنّةً للخطأ حتّى يكون هناك محلٌّ للمحاسبة فيه.

لا دلالة لإناطة الأمور بمشيئته تعالى على تجويز كلّ شيء عليه

(**الوجه الثاني**): إنّ القرآن الكريم يصرّح في مواضع كثيرة بأنّ الله سبحانه يفعل ما يشاء، وهو تعبير عن أنّه ليس هناك حدود محظورة على الله سبحانه، قال تعالى[2]: ﴿**وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾، وقال عزّ من قائل[3]: ﴿**قُل للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾، وقال سبحانه[4]: ﴿**وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ**

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٣.

(٢) سورة البقرة: ١٠٥.

(٣) سورة البقرة: ١٤٢، ولاحظ سورة البقرة: ٢٧٢.

(٤) سورة البقرة: ٢١٢، ولاحظ سورة آل عمران: ٣٧.

حِسَابٍ﴾.

وهكذا ورد أنّه تعالى يؤتي ملكه من يشاء[١]، وأنّه سبحانه يضاعف لمن يشاء[٢]، ويؤتي الحكمة من يشاء[٣]، ويغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء[٤]، ويصوّركم في الأرحام كيف يشاء[٥]، ويؤيّد بنصره من يشاء[٦]، ويخلق ما يشاء[٧]، ويفعل ما يشاء[٨]، ويؤتي فضله من يشاء[٩]، ويختصّ برحمته من يشاء[١٠]، ويجتبي من رسله من يشاء[١١]، ويغفر دون الشرك لمن يشاء[١٢]، ويزكّي من يشاء[١٣]، وينفق كيف يشاء[١٤]، والأرض يورثها من يشاء[١٥]، ويتوب على من يشاء[١]، لطيف لما يشاء[٢]، ويصيب بالصواعق من يشاء[٣]،

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٦١.

(٣) سورة البقرة: ٢٦٩.

(٤) سورة البقرة: ٢٨٤.

(٥) سورة آل عمران: ٦.

(٦) سورة آل عمران: ١٣.

(٧) سورة آل عمران: ٤٧.

(٨) سورة آل عمران: ٤٠.

(٩) سورة آل عمران: ٧٣.

(١٠) سورة آل عمران: ٧٤.

(١١) سورة آل عمران: ١٧٩.

(١٢) سورة النساء: ٤٨.

(١٣) سورة النساء: ٤٩.

(١٤) سورة المائدة: ٦٤.

(١٥) سورة الأعراف: ١٢٨.

ويضلّ من يشاء ويهدي من يشاء[٤]، إلى غير ذلك ممّا ورد فيه نظائر ذلك.

ويلاحَظ على هذا الوجه: أنّ الناظر في الآيات القرآنيّة بمجموعها يتّضح له إجمالاً أنّ المراد بآيات المشيئة ليست إلغاء الحدود والمعايير العادلة في حقّه تعالى والتي أكّد عليها في آيات كثيرة أخرى، بل المراد بها مجابهة الاقتراحات التي كان يطرحها الكفّار والمشركون في شأن الاختيار الإلهيّ، فهم كانوا يثيرون أسئلةً جدليّة في تلك الأفعال، فيقولون مثلاً: لماذا آتى الله الرسالة هذا الرجل دون الآخرين، كما قال تعالى[٥]: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾، ففي مثل هذا السياق جاء أنّه سبحانه يخصّ برحمته من يشاء، وكذلك كانوا يتساءلون أنه لماذا يهدي الله قوماً ويضلّ قوماً، فلو شاء لهدانا، كما قال تعالى[٦]: ﴿**وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾، وفي مثله جاء أنّه سبحانه يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، وهكذا الحال في سائر الأمور المتقدّمة.

ويدلّ على ذلك قرائن ..

١ ـ إنّك لو تأمّلت سياق الآيات المتقدّمة ونظائرها وجدت في كثيرٍ منها أنّها محفوفةٌ

---

(١) سورة التوبة: ١٥.

(٢) سورة يوسف: ١٠.

(٣) سورة الرعد: ١٣.

(٤) سورة إبراهيم: ٤.

(٥) سورة الزخرف: ٣١ ـ ٣٢.

(٦) سورة الزخرف: ٢٠.

بما يدلّ على نظرها إلى مثل تلك الاقتراحات والشبهات، قال تعالى(١): ﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾.

وقال تعالى(٢): ﴿**مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾.

وقال عزّ من قائل(٣): ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

٢ ـ إنّ من نظر إلى الأفعال المذكورة في سائر مواضع ذكرها في القرآن الكريم وجد أنّها تذكر بدل المشيئة صفات مستوجبة للمشيئة الإلهيّة.

مثلاً: عُلّقت الهداية والإضلال في جملة من الآيات الشريفة التي أُشير عليها على مشيئة الله تعالى، بينما نجد أنّهما عُلّقتا في آياتٍ أخرى على صفات في الإنسان يستوجب بها الهداية والإضلال، كما قال تعالى(٤): ﴿**وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ**﴾، وقال سبحانه(٥): ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾، وقال تعالى(٦): ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾، وقال سبحانه(٧): ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي**

---

(١) سورة البقرة: ٩٠.

(٢) سورة البقرة: ١٠٥.

(٣) سورة البقرة: ١٤٢.

(٤) سورة الرعد: ٢٧.

(٥) سورة البقرة: ٢.

(٦) سورة آل عمران: ٨٦.

(٧) سورة المنافقون: ٦.

الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، وقال عزّ من قائل[1]: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾، وقال تعالى[2]: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ**﴾، وقال جلّت آلاؤه[3]: ﴿**كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ**﴾.

ومثل الهداية والإضلال أفعال أخرى وردت على نحو مختلف حسب اختلاف المقامات، بمعنى أنّها عُلّقت على المشيئة طوراً وعلى صفات تستوجب تلك الأفعال طوراً آخر.

٣ ـ الآيات الأخرى التي تعلّل أفعاله وتشريعاته تعالى بالحكمة والعدل وغير ذلك؛ فإنّ في ذلك دلالة على أنّ المراد من إناطة الأشياء بمشيئته سبحانه ليس ما ينفي جريان مشيئته تعالى على وفق مبادئ الحكمة والفضيلة.

ومن سبر الآيات القرآنيّة وجد أنّها تتعامل مع الهواجس والأسئلة التي تكون حقيقيّة وموضوعيّة باللطف والبيان والتطمين، نظير ما جاء في تعليل تشريع الوضوء والصلاة والصيام بالتطهير وبالانتهاء عن الفحشاء والمنكر وبالتقوى، ولكن عندما تكون الغاية من الأسئلة إثارة الشبهة والمجادلة دون التحاكم إلى المنطق والعقل فإنّ الجواب في الآية يرد بلسان تعليق الأمور كلّها على المشيئة إبرازاً للقوّة في مقابل التعسّف.

والحاصل: أنّ المقامات مختلفة في لياقاتها، ومقتضى البلاغة أن تكون صياغة الجواب مناسبةً للطرح الذي يُراد الجواب عنه؛ ومن ثَمّ جاءت الآيات بصيغتين مختلفتين، فإن كان التساؤل مبنيّاً على التعلّم والتفهّم جاء الجواب ببيان وجه الحكمة أو الإشارة إلى أنّ لله

---

(١) سورة غافر: ٢٨.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٧.

(٣) سورة غافر: ٣٤.

سبحانه حكمةً نظر إليها في فعله وتشريعه، وإن كان الطرح مجادلةً بالباطل وإثارةً للشبهة جاء الجواب أنّ الله سبحانه لا يستأذن أحداً من خلقه في أفعاله واختياراته ولا يحتاج إلى اقتراح الآخرين، فهو يفعل ما يشاء كما يشاء.

موارد يُدّعى عدم انسجامها مع الضمير الأخلاقيّ

(**الوجه الثالث**): إن هناك جملة من الموارد التي يتراءى فيها أنّها لا تنسجم مع ما تقدّم من حديث الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه، وهي على ثلاثة أقسام ..

ادّعاء منافاة بعض التشريعات للضمير

(**القسم الأوّل**): موادّ تشريعيّة قد يتراءى للإنسان أنّها مخالفة للعدل، مثل بعض الأحكام الجزائيّة التي قيل إنّها قاسية جدّاً، أو الأحكام المتعلّقة بالأحوال الشخصيّة، حيث قيل إنّها تنافي العدالة بين الرجل والمرأة، والأحكام المتعلّقة بالتعامل مع غير أهل الدين، حيث قيل إنّها لا تطابق العدل بين المؤمنين بالدين وغيرهم على أساس الاختلاف في العقيدة.

ويلاحَظ بشأن هذا القسم: أنّ أصل العدل في التشريع هو من المبادئ العامّة للتشريع الإسلاميّ، كما قال الله سبحانه[1]: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى**﴾.

وقال تعالى[2]: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ**﴾.

وقال عزّ من قائل[3]: ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ**

---

(١) سورة النحل: ٩٠.

(٢) سورة النساء: ٥٨.

(٣) سورة الشورى: ١٥.

آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

وقال جلّ جلاله[(١)]: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾.

وقال سبحانه[(٢)]: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾.

وقال تعالى[(٣)]: ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ**﴾.

وعليه فإنّ التشريع وفق منظور الدين قد تحرّى العدالة في كلّ تشريعاته انسجاماً مع هذا الأصل، كما نلاحظ ذلك في عشرات الموارد بالمقارنة بين الأحكام العرفيّة التي كانت نافذةً بين الأقوام.

وأمّا الموارد التي يتراءى فيها التشريع خلاف العدالة فالحال فيها لا يخلو عن أحد وجوه ..

١ ـ عدم ثبوت الحكم المفترض في الشريعة بنحوٍ قاطع؛ وإنّما هو جزء من الفقه الاجتهاديّ الخاضع للمناقشة والبحث.

٢ ـ عدم ثبوت منافاة الحكم لمقتضى الضمير الأخلاقيّ بعد التأمّل في حيثيّات الحكم والأبعاد المنظورة والمحتملة له بإمعان. بل يتوقّع الباحث المتمعّن أحياناً وجود أبعاد لا يتوقّعها ولا يستطيع الحدس بها، فلا يحصل له الجزم بمنافاة الحكم للضمير.

٣ ـ إمكان أن يكون الحكم من قبيل المتغيّر الذي يمكن أن يختلف باختلاف الأزمان، ومن المعلوم لمن أحاط بتاريخ القانون والاجتماع أنّ من الجائز أن يختلف المقدار المُتاح من العدالة باختلاف الأزمان.

---

(١) سورة المائدة: ٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٨.

(٣) سورة الأعراف: ٢٩.

وقد أوضحنا القول في ذلك بعض الشيء في بحث حقيقة الدين ومباحث الدين والعدالة.

ادّعاء كون العقوبات الأخرويّة منافيةً للضمير ونقده

(القسم الثاني): ما يتعلّق بالجزاء في النشأة الأخرى، حيث يلاحَظ أنّ العقوبات الأخرويّة هي عقوبات شديدة وطويلة لا تناسب المعاصي التي وقعت من المعاقَبين في الحياة الدنيا.

وقد يُجاب عن ذلك بوجوه، من جملتها: أنّ الآيات الشريفة في القرآن الكريم قد نظرت على ما يبدو إلى مثل هذه الفكرة؛ ومن ثَمّ أكّدت أنّ ما يتّفق في الآخرة إنّما هو إيفاء بالأعمال نفسها دون الزيادة عليها، قال تعالى[1]: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾.

إذاً الآيات تصرّح أنّ الجزاء في الآخرة نحو تمثّل وإيفاء بالخطايا بمقدارها، إلّا أنّ طبيعة العلاقة بين الأعمال ونتائجها الأخرويّة هي أشبه بالزرع والحصاد، وهذا لا يختصّ بجانب العقاب، فالحال في الثواب كذلك، فما يُذكر من الثواب الجزيل في الآخرة على الأعمال الصالحة شيء كبير أيضاً.

وحيث إنّنا لا نحيط بكنه هذه الفكرة ـ نعني طبيعة العلاقة بين الأعمال والعقوبات الأخرويّة ـ فإنّنا لا نستطيع أن نجزم بمنافاة تلك العقوبات مع العدالة.

وسيأتي زيادة تفصيل في الموضوع في بحث المعاد.

---

(١) سورة البقرة: ٢٨١.

(٢) سورة الحجّ: ١٠.

ادّعاء منافاة الشرور والمظالم في العالم مع الضمير الأخلاقيّ للإله ونقده

(القسم الثالث): الشرور والمظالم والنواقص التي تتّفق في هذا الكون المادّيّ، فيُقال: إنّ المناسب مع إثبات الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه أن يخلق الكون والكائنات على نحوٍ تخلو عن هذه الظواهر السلبيّة.

وهي أمور متعدّدة ..

١ ـ الحوادث التي تدمّر الطبيعة وجمالها ونسقها، مثل الزلازل والسيول والفيضانات والبراكين المثارة والحرائق التي تحصل بأسباب طبيعيّة كالصواعق ونحوها.

٢ ـ الكائنات الضارّة التي لا نفع فيها، مثل أنواع الجراثيم والميكروبات المسبّبة للأمراض والحشرات الضارّة.

٣ ـ وجوه النقصان في الخلقة في بعض أفراد النوع، حيث يولَد الكائن مشوَّهاً ومعوَّقاً يعيش العناء والأذى.

٤ ـ اختلاف الخلق في الإمكانات التي زوِّدوا بها سواء كان ذلك في أنفسهم كما في تفاوتهم في القدرات الذهنيّة والنفسيّة والبدنيّة، أو بلحاظ البيئة التي وُجدوا فيها، مثل تفاوتهم في مستوى الآباء والأمّهات وإمكانات التربية والتعليم والسعادة.

٥ ـ العوارض التي تصيب الإنسان، سواء كان ذلك أمراً غير اختياريّ، مثل الأمراض والعوارض الناشئة عن تعرّض الإنسان للخطأ والنسيان والسهو، أو كان أمراً اختياريّاً كما في ظلم بعض الناس لبعض.

فكيف ينسجم ذلك كلّه مع عدل الله سبحانه وحكمته؟

والجواب عن ذلك يتّضح بالالتفات إلى نكات ..

ضرورة تحكيم قانون الموازنة في الحديث عن الشرور

(النكتة الأولى): ـ وهي نكتة منطقيّة ـ قانون الموازنة بين المؤشّرات، أو قل قاعدة

المحكم والمتشابه، بمعنى أنّه عندما تجتمع عند الإنسان مؤشّرات إيجابيّة ومؤشّرات سلبيّة تجاه أمرٍ معيَّن، فعلى الإنسان أن يجري الموازنة بين هذه المؤشّرات ويحكّم أقواها على أضعفها، فما هو محسوم بشكلٍ قاطعٍ لا يحتمل الخلاف يكون حاكماً على الآخر الذي يحتمل وجهاً آخر يناسب الشيء المحسوم.

وهذا القانون من جملة القوانين العامّة التي ربّما يجري عليها الإنسان في اليوم الواحد عشرات المرّات فيما يتعلّق بحمل أفعال الآخرين من الآباء والأزواج والأولاد والأصدقاء وعامّة المجتمع، فتجد أنّه تجتمع لديه المؤشّرات المختلفة في كلّ مجال، ويبتني تعامله على غربلتها وتحكيم الأقوى منها وحمل الأضعف منها على محملٍ مناسبٍ لذلك.

فقد يثق الإنسان بصفات معيّنة في أبيه، مثل حبّ الخير له والاهتمام بسعادته ولكنّه يجد منه عملاً يبدو غير ملائم، فيحتمل له مخرجاً لا ينافي تلك المحبّة والاهتمام.

وقد يكون للإنسان صديق يعهد فيه صفات ويحدث منه تصرّف مريب، فيحمل ذلك التصرّف على محمل مناسب وإن كان خلاف ما يتراءى منه، إلى غير ذلك من الأمثلة التي يجدها الإنسان في حياته الشخصيّة.

ولكنّنا نجد في هذه الأمثلة ونظائرها مَن لا يجري على هذا المنوال المنطقيّ، بل يجعل الحالة المتشابهة تحدّياً للمعلومات اليقينيّة المحكمة، بل يعكس الأمر فيجعل تلك الحالة محكمةً ويجعل تلك المعلومات بالرغم من وزنها متشابهةً ومحتملةً للوجهين؛ ومن ثَمّ يجادل في ثبوت الصفات المعهودة في الأب والصديق ويطعن عليهما تمسّكاً بتلك الحالة المتشابهة.

وعليه فإنّ علينا عند تأمّل الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه أن نستحضر هذا المبدأ، كما أكّدنا على مثل ذلك في شأن صفات أخرى له سبحانه كالعلم والحكمة.

إنّ ما يدلّ على ثبوت هذا الضمير لله سبحانه يتّصف بالوضوح والرشد، فليس من المعقول في حقّ الإله ـ في قدرته وعظمته وسعة خلقه ـ أن يكون معنيّاً بإيقاع حوادث

سلبيّة لذاتها، أو الإذن فيها من غير حكمة مبرّرة لها وراءها، فهل من المحتمل أن تكون الزلزلة التي تُذهِب بالنفوس مثلاً حالةً مقصودةً لله سبحانه لأجل إيجاد الدمار، أو يكون عدم إسعافه للمضطرّ أمراً مقصوداً له لأجل استمرار معاناته؟! وما هو حجم الإنسان أمام هذا الخلق العظيم للمجرّات والنجوم؟!

إنّ هذا أمر غير معقول.

إذاً علينا أن نثق بأنّ لله سبحانه حكمةً في هذه الحوادث ونظائرها.

إنّنا لا نحيط بكنه هذه الحياة ولا بغاياتها، ولا بالخيارات البديلة عن نظمها الحاليّ. وفي هذه الحالة يكون الموقف السليم والمعقول أن يعتبر الإنسان حكمة الله سبحانه وعدالته أمراً محكماً ويعتبر الحالات التي يتراءى منها غير ذلك حالات متشابهة يرد فيها الاحتمال، ويكون البتّ فيها مجازفةً عند العقلاء.

اختلاف لياقات الحُسن والقبح بين الله سبحانه وبين خلقه

(النكتة الثانية): إنّ قانون الضمير الأخلاقيّ وإن كان مشتركاً في أصله بين الله سبحانه وبين خلقه، ولكن مع ذلك فإنّ هناك فروقاً بينهما ـ تقدم ذكرها ـ وذلك لأنّ الحسن والقبح لياقات تعتمد على طبيعة الفاعل ونوعه وموقعه وشخصيّته ومؤهّلاته؛ ومن ثَمّ يختلف حال الإنسان الضعيف المخلوق عن حال الله سبحانه الذي هو صانع هذه الحياة ومدبّرها ومقنّنها ومالك كلّ شيء فيها.

مثلاً: قد تعتمد بعض قضايا الحسن والقبح على الإحساس المناسب للإنسان تجاه بني نوعه كما يعبّر عنه بالقول المعروف (أحبب لأخيك ما تحبّ لنفسك واكره له ما تكره لها). ولكن من المعلوم أنّ هذا المعنى لا يرد في العلاقة بين الباري سبحانه وبين الإنسان.

كذلك قد تعتمد المقتضيات الأخلاقيّة على طبيعة المشاعر المغروسة في الإنسان، مثل مشاعر الرحمة والرقّة والعطف ومستوى العقلانيّة التي يتمتّع بها من تقديرٍ للعواقب

والمضاعفات وما يليق أخذه بنظر الاعتبار، وفي مثل ذلك يختلف الأمر بعض الشيء أيضاً تجاه الله سبحانه.

وكذلك قد تعتمد اللياقات الأخلاقيّة على موقع الفاعل، فقد يكون اللائق بالأمّ أن تتعامل مع ولدها الصغير بعاطفة ولين وكذلك الحال في إخوته وأخواته، ولكن يليق بالأب أن يتعامل معه بحزم من جهة موقعه في الأسرة ووظيفته.

وقد يُفسَّر بذلك ما يتراءى من جملة النصوص الدينيّة من الثناء على سعة خُلق الرسول ﷺ مع حزمه سبحانه وتعالى في التعامل مع الموضوع[1].

وعليه فمن الخطأ التسوية التامّة بين الله سبحانه وبين خلقه.

ومن الضروريّ جدّاً أن لا يطلق الإنسان العنان لذهنه في شأن الله سبحانه فيذهب

---

(١) قال سبحانه في الثناء على رسوله ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (سورة القلم:٤)، وقال سبحانه يصف حياء رسوله ﷺ ممّا لا يستحي هو سبحانه منه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ..**﴾ (سورة الأحزاب:٥٣)، وقال تعالى يصف استغفار النبيّ ﷺ للمشركين وينفي استجابته لذلك: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (سورة التوبة:٨٠)، وقال سبحانه: ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (سورة المنافقون:٦)، ثمّ ورد النهي عن الاستغفار بقوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ (سورة التوبة:١١٣)، وقال سبحانه يثني على رسوله ﷺ فيما وُصف به من أنّه أُذن (سريع التصديق لمن اعتذر له): ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (سورة التوبة:٦١).

إلى أقصى حدّ يتراءى له من المثاليّة في تفصيلاتها التي يتوقّعها، بل الصحيح منطقيّاً أن يكتفي بنصاب معقول يستيقن به في شأن الذات الإلهيّة، ويسلّم فيما سواه لما يجده من الواقع المعاش، والآفاق الغائبة عنه، فليس من الضروريّ أن تنطبق مقاسات الإنسان ومقترحاته في شأن الله سبحانه على حسب ما يرجوه ويأمل فيه، وهذا أمر موائم مع المنطق لمن تأمّله جيّداً.

كون أفعال الإله مقنَّنةً رُتّب الكون عليها

(النكتة الثالثة): ما تقدّم من أنّ أفعال الله سبحانه هي أعمال مقنَّنة، تبتني على جعل أشياء أسباباً لأشياء أخرى، فليس التصرّف في كلّ حالة بمنفصل عن أخواتها ونظائرها. فإذا شفى الله سبحانه هذا المريض على أساس الإعجاز لمجرّد كونه يعاني من المرض فإنّ مقتضى ذلك أن يفعل ذلك مع كلّ مريض، وإذا حال سبحانه من وقوع الحريق بشكلٍ خارق لمجرّد دفع الأضرار والأذى كان مقتضاه أن يفعل ذلك مع كلّ حريق. وإذا حال تعالى دون وقوع هذا الشرّ لمجرّد كونه شرّاً فإنّ لازمه أن يحول دون وقوع سائر الشرور.

وبذلك يتّضح: أنّ مقتضى الإصلاح المقترح أن يتغيّر نظم الحياة عن النظم الذي نجده إلى نظمٍ آخر مبنيٍّ على تدخّلٍ إعجازيّ واضح كلّما كان هناك مظنّة لوقوع شرّ أو فساد، بل الأحرى حينئذٍ خلق الكون المادّيّ على وجه لا ينتج ما يكون شرّاً وأذى، وذلك كون مختلف في الحقيقة عن هذا الكون المادّيّ بما يشتمل عليه من الكائنات كما نجدها.

وعليه فلابدّ من التأمّل جيّداً في أنّ العقل والضمير الإنسانيّ هل يستطيع أن يبتّ بأنّ المفروض عدم خلق هذا الكون المادّيّ بما هو عليه من الظواهر المحفّزة على العلم والأخلاق والتضحية والفداء، إلى كونٍ آخر يكون أشبه بالجنّة في النشأة الأخرويّة حسب

إخبار الدين[1]؟

وحدة السنن المنتجة للخير والشرّ

(النكتة الرابعة): فهم الارتباطيّة بين الأشياء في هذه الحياة.

إنّنا نجد في هذه الحياة ظواهر عديدة يتجلّى لنا بعضها إيجابيّاً ممّا يتضمّن سنن البناء والإنتاج الرائع المادّيّ من قبيل المجرّات والنجوم وأنواع الكائنات لاسيّما المياه والأنهار والنباتات والحيوانات، أو المعنويّ مثل العلوم والسلوكيّات الفاضلة، ويتراءى بعضها

---

(١) يقول فرانسيس كولنز في كتاب (لغة الإله ص:٥١ـ٥٢) بعد ذكر حادثة اعتداء مؤلمة على ابنته في ليلةٍ كانت وحدها: (لم أدرك الشرّ المطلق إلّا في تلك الليلة. ولم أتمنَّ بلهفةٍ أنْ يتدخّل الإله في شيءٍ كما تمنّيت أن يتدخّل بطريقةٍ ما لمنع هذه الجريمة البشعة. لماذا لم يوجِّه الإله صاعقةً إلى المجرم؟ أو على الأقلّ يجعله يؤنِّب ضميره؟ لماذا لم يضع درعاً خفيّاً حول ابنتي لحمايتها؟

لعلّ الإله يتدخّل في بعض الحالات النادرة بمعجزات، ولكن غالباً، الإرادة الحرّة والنظام في العالَم الفيزيائيّ هي حقائق أصيلة. في حين أنّنا نرغب بأن تتكرّر مثل هذه المعاجز، فإن حدث ما يعطّل هذين الأمرين (الإرادة الحرّة ونظام العالَم)، فما سيترتّب عليه هو أن تعمّ الفوضى.

ماذا عن وقوع الكوارث الطبيعيّة: الزلازل، موجات التسونامي، البراكين، الفيضانات الكبيرة، والمجاعات؟ وعلى نطاق أصغر ولكن لا يقلّ تأثيراً، ماذا عن إصابة ضحيّة بريء بالمرض، مثل إصابته بالسرطان في طفولته؟ يشير الكاهن الإنجيلكانيّ والطبيب المميَّز جون بولكينغ هورن إلى هذه الفئة من الوقائع بأنّها (الشرّ الفيزيائيّ) في مقابل (الشرّ الأخلاقيّ) الذي يقوم به البشر. كيف يمكن تبرير ذلك؟

العلم يكشف عن أنّ كوكبنا والحياة ذاتها تعمل عبر عمليّة تطوّريّة. ما يترتّب على ذلك يمكن أن يشمل عدم القدرة على التنبّؤ بالطقس، أو انزلاق طبقة في باطن الأرض، أو تشوُّه في جين السرطان في عمليّة انقسام الخليّة المعتادة؟ إذا كان الإله قد اختار أن يستخدم هذه القوى في خلق البشر، فإنّ حتميّة التبعات المؤلمة لذلك تصبح مؤكَّدة. على الأقلّ فإنّ التدخّل الإعجازيّ المتكرّر سوف يُعدُّ الفوضى في المجال الفيزيائيّ، بنفس مقدار التدخّل في الأفعال الحرّة للإنسان).

الآخر سلبيّاً وهو ما يوجب الهدم من قبيل الزلازل والفيضانات والحرائق والأمراض والمظالم وغيرها.

ولكن إذا تعمّقنا في الحياة عرفنا أنّه ليس هناك سنن منفصلة للخير والشرّ والسعادة والشقاء والبناء والانهدام، بل هناك سنن بعينها تنتج هذا المزيج من الظواهر والحوادث المختلفة، وهذا أمرٌ بيّنٌ بحسب التأمّل العلميّ والتأمّل العامّ..

أمّا التأمّل العلميّ فهو واضح لأهل العلم؛ فإنّ أهل العلم بالفيزياء والكيمياء والأحياء والنفس وسائر العلوم يجدون أنّ السنن المنتجة لهذه الحوادث كلّها واحدة، وليست هناك سنن للخير وأخرى للشرّ، بل تلك السنّة بتوالدها وتفاعلها تنتج الظواهر المختلفة فيولَد الشرّ في أحضان الخير، والخير في أحضان الشرّ، والسعادة في أحضان الشقاء، وكذلك العكس.

وعليه فإنّ إلغاء سنن الشرّ يعني إلغاء المشهد كلّه وعدم إيجاده من أصله وليس إلغاء قسم من الظواهر في الكون.

فهذا المشهد المادّيّ عند التأمّل فيه من منظور العلوم الطبيعيّة التي تكشف عن سنن الكون وقواعده مشهد واحد لا يتجزّأ، فلابدّ من النظر إلى تقدير له بمجمل ما عليه وملاحظة رجحان حسناته على سيّئاته من عدمها وفق ما يليق بالذات الإلهيّة.

وأمّا التأمّل العامّ فالحال كذلك؛ فإنّنا إذا تأمّلنا حوادث الحياة وجدنا تداخلها بنحوٍ عجيب، فانظر مثلاً إلى سنّة الموت وعوامله من الأمراض والأعراض، فهل الموت أمر إيجابيّ أو سلبيّ، فهل من الأفضل أن تكون الكائنات الحيّة من النباتات والحيوانات والناس خالدةً مهما هرمت وكثرت، فلا يتغذّى بعضها على بعض ويُخلق لكلٍّ منها طعام غير ذلك، أم من الأفضل أن يذهب جيلٌ ويجيء جيلٌ آخر من بعده حتّى يتجدّد الكون والحياة ويكون دافعاً للإنسان على اكتشاف عوامل البقاء والفناء؟

من الصعوبة أن نجزم بأنّ البقاء الخالد هو الخيار الأفضل لهذه الحياة، ومن الصعوبة كذلك أن نجزم بأنّ عدم خلق شيءٍ أصلاً هو الخيار الأمثل، وكذا من الصعوبة أن نفترض خياراً مادّيّاً بديلاً لا يشتمل إلّا على الخير والسعادة للطبيعة والكائنات الحيّة، ونحن لا نعلم أنّ هذا الخيار هل هو عمليّ ومعقول أو لا؟

هذا، وإذا قدّرنا أنّ الموت خير فإنّ ذلك يبرّر العوامل المؤدّية إليه من الأعراض والأمراض، وعلى ذلك تُقاس سائر الظواهر في الحياة.

إنّ هذه الحياة ـ حسبما يظهر بالتأمّل الجامع فيها ـ محبوكة حبكةً قويّة، فهي مجموعةٌ متكاملةٌ من السنن والقواعد يتفاعل بعضها مع بعض، ومن شأن الالتفات إلى ذلك الانتباه إلى عدم وضوح اقتراح إيجابيّ وعمليّ أفضل.

نشأة قسم من الشرور من عمل الإنسان

(النكتة الخامسة): ـ وهي تطبيقٌ من تطبيقات النكتة السابقة ـ إنّ قسماً من الشرور ناشئ من قبل الإنسان من قبيل ظلم الناس بعضهم لبعض، بل بعض الحوادث السلبيّة الطبيعيّة مستند بمقدار ما إلى الإنسان من قبيل تخريب البيئة ومضاعفات الاحتباس الحراريّ وغير ذلك.

وما نشأ عن فعل الإنسان فهو في الحقيقة مترتّب على مجموع عنصرين في الإنسان: أحدهما الرغبات المادّيّة الموجبة لهذه الأعمال، وثانيهما اختيار الإنسان، وقدرته على التحكّم.

وعليه فإنّ الإنسان هو الذي يتحمّل مسؤوليّة ما نتج عن أعماله من الشرور[1].

---

(١) يقول لويس (باحث ايرلنديّ ت١٩٦٣م) ـ كما جاء عنه في (لغة الإله ص:٥١): (إذا اخترت أن تقول أنّ الإله يمكن أن يمنح المخلوقات حرّيّة الاختيار هذه، فإنّك عندها لن تكون قد قلتَ شيئاً عن

نعم، الله سبحانه قد خلق هذا الإنسان المجهّز بالرغبات وبالاختيار، إلّا أنّ الرغبات هي حاجات إنسانيّة بطبيعة كون الإنسان كائناً حيّاً ذا بُعدٍ مادّيّ. والاختيار في حدّ نفسه صفة كمال، حيث يستطيع الإنسان من خلاله من اختيار الأفعال الحسنة والرائعة التي تتضمّن الإيثار والتضحية والثبات والسكينة، كما يستطيع من خلاله من الإتيان بالأعمال السيّئة.

والحاصل: أنّه لابدّ من الالتفات إلى دور الإنسان في المظالم والشرور الصادرة منه والمترتّبة على أعماله، فلا يصحّ إغفال هذا الجانب في شأنها.

لزوم وضع الحياة الدنيا بجنب الآخرة لفهمها

(النكتة السادسة): إنّه لابدّ من وضع هذه الحياة الدنيا بجنب الآخرة؛ لأنّ الآخرة هي الوجه الآخر للكون المادّيّ، ولما يتّفق فيها دخلٌ في تقييم ما يجري في هذه الحياة بطبيعة الحال، فلن تكتمل معادلة الخير والشرّ إلّا بالنظر إلى صفحتي الوجود المادّيّ معاً. فرُبّ أمر يتراءى هنا شرّاً لكنّه يكون له آثار حسنة في الآخرة توجب تداركه وتغلب عليه، وقد يُعَدّ من ذلك بعض الشيء ما ورد في شأن الإنسان من احتساب عنائه في هذه الحياة بالفقر والمرض والتخفيف عنه في الآخرة.

والحاصل: أنّ البتّ على حكم كثيرٍ ممّا يقع في هذه الحياة أمر غير منطقيّ قبل

الإله. تركيب من الكلمات يفتقر للمعنى، لا يمكنه فجأةً أن يعطي للكلام معنى، لمجرّد أنّنا بدأناه ببساطة بكلمتين (الله يستطيع). ما لا معنى له يظلّ عديم المعنى، حتّى لو كان كلامنا عن الإله).

وقال فرانسيس كولنز (ص:٥٠): (ونحن كثيراً ما نستخدم هذه القدرة في عدم إطاعة القانون الأخلاقيّ. عندما نقوم بذلك ينبغي أن لا نلوم الإله على العواقب.

هل ينبغي على الإله أن يقيّد حرّيّتنا من أجل أن يمنع حدوث مثل هذه السلوكيّات الشرّيرة؟ هذا النوع من التفكير سريعاً ما يصطدم بمعضلةٍ لا يوجد لها جواب عقلانيّ).

ملاحظة وجود النشأة الأخرى؛ لأنّ تلك النشأة هي البُعد الآخر للوجود المادّيّ، وهي غائبة عنّا.

خلق الحياة الدنيا وفق نظام الامتحان

(النكتة السابعة): إنّ هذه الحياة الدنيا مخلوقة على نظام الامتحان والاختبار النوعيّ بالنسبة إلى الإنسان ـ الذي هو الغاية لهذا الكون المادّيّ ـ بمعنى أنّه يتّفق فيه الأشياء المغرية والمجهدة ليختبر ردّ فعل الإنسان تجاهها من اختيار سبيل الرشد والفضيلة، أو الاتّجاه إلى سبيل الغيّ والرذيلة. وطبيعة الاختبار تقتضي عرض مواقف صعبة ومجهدة كي يجري التفاضل بحقّها، ويؤتَى كلّ ذي حقٍّ حقه كما هو الحال في اختبار الطلّاب في الدرس، فلو كان جميع الطلّاب على درجة عالية من الذكاء مع الظروف المواتية للجميع لم يكن هناك معنىً للاختبار، ولكنّ الاختبار إنّما يتحقّق مع وجود التحدّيات وصعوبة الأسئلة حتّى يتبيّن جهد كلّ واحدٍ ومقدرته في مجال الدراسة، فالحياة الدنيا بالنسبة إلى الإنسان كذلك، قال الله سبحانه[1]: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾.

والمراد بالاختبار النوعيّ هو خلق الكون والإنسان على نحوٍ يحدث المواقف الاختباريّة ممزوجةً بسائر شؤون الحياة بشكلٍ طبيعيّ، وليس هناك فرز لحوادث خاصّة لاختبار الإنسان بنحوٍ شخصيٍّ نظير أسئلة الطلبة في الامتحانات الدراسيّة.

فالحاصل: أنّ الحياة خُلقت لتكون اختباراً معرفيّاً وسلوكيّاً للإنسان؛ ومن ثَمّ زُرع فيها بجنب عوامل المعرفة والفضيلة ظواهر وحالات أخرى حتّى يتميّز المتميّزون من خلال الاختبارات العمليّة. ولا شيء في هذه الحياة الإنسانيّة أروع من مساعي الإنسان في

---

(١) سورة الملك: ١ ـ ٢.

التحلّي بالمعرفة والفضيلة؛ وإنّما ترتسم الفضيلة المثلى من خلال مواجهة التحدّيات والصبر عليها، وهو إنّما يتحقّق من خلال الشدائد والاختبارات الصعبة.

هذه عدّة نكات تساعد على فهم أوسع لحوادث الحياة، وهذه نكات بعضها محوريّة كالأولى والأخيرتين والباقي يصلح أن يكون مكمّلاً وموسّعاً للقسم المحوريّ منها.

وأعتقد أنّ الإنسان إذا درسها وتأمّلها بتروٍّ فهو لا يجد في حوادث الحياة دليلاً محكماً ينفي الضمير الأخلاقيّ لله سبحانه وحكمته بالمقارنة مع الدلائل المثبتة المتقدّمة، بل يكون حالةً متشابهةً أمام تلك الدلائل.

وبذلك نخلص إلى أنّ الأصل المحكم والثابت هو ما جاءت به الرسائل الإلهيّة واقتضاه العقل والفطرة من كمال الخالق واتّصافه بالحكمة والعدالة.

وبهذا يتمّ ما أردنا التعرّض له من صفات الله سبحانه وتعالى.

لقد اتّضح من مجموع ما ذكرناه: أنّ ما يدركه العقل وتقضي به الفطرة وتدلّ عليه شواهد الكون وجاء في الدين من خلال القرآن الكريم عن الخالق سبحانه منسجم ومتلائم يجد الإنسان فيه انطباعاً معقولاً عليه ملامح الرشد وسطوع الحقيقة إلى حدٍّ كبير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ونسأله التوفيق لتحقيق الحق والقبول به، إنه سميع مجيب، وهو على كلِّ شيء قدير.

الفهرس